نسخة منسقة
مجلة الإبتسامة

بهاء طاهر

168

www.ibtesama.com

الخطوبة

مجموعة قصصية

http://www.maktbtna2211.com
مكتبتنا
كنوز من المعرفة

دار الشروق

Ahmed Mady

فريق العمل بقسم تحميل
كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

Dr. Ahmed Mady

د. أحمد ماضي

بهاء طاهر

الخطوبة

مجموعة قصصية

دار الشروق

المحتويات

الخطوبة ٧
الأب ٣١
الصوت والصمت ٣٩
اللكْمَة ٥٧
نهاية الحفل ٧٥
بجوار أسماك ملونة ١٠١
المظاهرة ١١١
المطر فجأة ١٣٣
كومبارس من زماننا ١٤١
صدر للكاتب ١٦٣

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

الخطوبة

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

كنت قد اعتنيت بكل شيء.. أخذنى صديق مجرب إلى حلاق مشهور، قص شعرى وصففه ودلّك ذقنى وتقاضى جنيها.. وبعد ذلك اشترينا ربطة عنق حمراء غالية وأزرارا فضية للقميص. وفى النهاية عندما وقفت أمام المرآة أصبحت وكأنى شخص غريب. لم أكن أكثر وسامة ولكننى كنت مختلفا: بشعر لامع وراكد كأنه ملتصق بالجلد، وذقن لامعة أيضًا ومحتقنة، وياقة قميص صلبة ومحكمة. ولأول مرة فى حياتى رشقت دبوسا فى ربطة العنق، وخُيّل إلىّ طول الوقت أنه سوف ينزلق ويسقط ولكنه ظل ثابتا حتى النهاية.

تعجب البواب من هيئتى وسألنى، وهو يضحك، إن كنت ذاهبًا لأخطب، فقلت له إن عندى موعدًا مهمًا فى البنك وبغير سبب أعطيته خمسة قروش فنظر إلىّ باستغراب. قلت له أن يدعو لى لأنى أنتظر ترقية، فشكرنى ورفع يديه إلى السماء، وتمتم، وارتبكت، وخرجت من الباب بخطوات مسرعة ولسعنى الهواء فى وجهى فعرفت أن درجة حرارتى مرتفعة. وبينما كنت فى التاكسى بدأ قلبى يدق بشدة، وتأكدت أن كل الكلمات التى أعددتها قد ضاعت وأننى لن أعرف أن أقول شيئًا لأبيها بعد عبارة مساء الخير. وبدأ العرق.

قلت لنفسى وأنا أدق جرس الباب إن كل شيء سوف يتوقف على

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الأب وإننى يمكن أن أكتفى بالإجابة على أسئلته. فتحت لى الباب طفلة فى الحادية عشرة، سمراء ورزينة الوجه. وقفت خلف الباب الموارب وواجهتنى بعينين مسبلتين. عندما سألت عن الأب هزت رأسها وفتحت الباب وقادتنى دون كلمة إلى حجرة الجلوس.

ظللت بمفردى لفترة أشم رائحة غرف الجلوس المألوفة: رائحة الخشب الذى تحافظ عليه التهوية القليلة وندرة الاستعمال. كان الشيش مغلقًا يحجب نور الغروب الرمادى، ولكن على ضوء النجفة الباهر شاهدت الصور: لوحة زيتية لملاحين يقفان على طرفى الجندول، ويمسك كل منهما بمجداف طويل مغروس فى الماء، وتغطى وجهيهما قبعتان عريضتان، وفى خلفية الجندول البنى، والبحر الأزرق كان هناك ريف أوربى ألوانه خضراء وحمراء براقة. وعلى يمين اللوحة علقت صورة فوتوغرافية لرجل يضع يده على كتف امرأة فى ملابس الزفاف، ثم صور للأطفال فى أعمار مختلفة. ولفتت نظرى صورة طفلة تفرد ثوبها القصير بيدها إلى ناحية، وترفع يدها الأخرى بطريقة الراقصات الفرعونيات ولم أعرف إن كانت هى (ليلى) أم لا.

وقفت عندما فتح الباب فجأة، ودخل بالقميص والبنطلون، ونظارة طبية وخُف منزلى. مد لى يده وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، كانت يده باردة. وعندما جلس قبالتى سألنى هل يفتح الشيش أم لا؟.. نظرت للشيش طويلاً ولم أستطع أن أقطع برأى، فقال إن الربيع فى مصر متقلب ويغلب عليه البرد. وافقت على ذلك. فقال إن الربيع الحقيقى فى مصر هو الخريف فهو يخلو من الرطوبة، ومن ناحية أخرى فإن هناك فى الربيع رياح الخماسين. أضفت من جانبى أن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الخماسين تنقل الكثير من التراب وهذا يؤذى العين، فأسند ظهره على المقعد وقال:

ـ أهلاً وسهلاً.

وتلا ذلك صمت، كان يضع ساقًا على ساق ويهز خفه فى قدمه؛ فيبرز كعبه من الخف أملس ونظيفًا وشديد البياض، كبيضة كبيرة.

لم يعد هناك مفر، فبدأت أتحدث دون أن أنظر إلى وجهه. قلت له إننى زميل الآنسة(ليلى) فى البنك وأطلب يدها بعد إذنه، وحدثته عن شهادتى ومرتبى وأبى. وعندما رفعت رأسى فى النهاية وجدته يميل برأسه على صدره، وبدا لى أنه لم يسمع شيئًا مما قلت، ولكنه رفع رأسه فى النهاية وقال:

ـ من أى بلد فى الصعيد قلت حضرتك؟

قلت له مرة ثانية عن بلدى.

فسألنى: من عرب الصعيد؟

ـ نعم.

ـ وهل تعرف عبد الستار بك؟

لم أكن أعرفه، فقال لى إنه مدير المنطقة التعليمية هناك وإن كل إنسان يعرفه. شرحت له أننى تعلمت فى القاهرة وتوظفت فيها بعد التخرج وربما كان هذا هو السبب فى أننى لم أعرف عبد الستار بك. هز رأسه ولم يبد مقتنعًا بذلك، ثم التفت ناحية الباب وكانت الفتاة السمراء تتقدم بحذر وهى تحمل كوبًا من الليمون

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

على صينية. وضعت الكوب أمامى ثم خرجت. قال لى: تفضل، فقلت له: تفضل أنت فقال إنه لا يشرب شيئًا بسبب أمعائه الغليظة وأشاح بوجهه للناحية الأخرى. وبدا لى أنه غضب منى لذلك، لكن بينما كنت أشرب الليمون قال لى إنه يشرفه أن أطلب يد ابنته، وإنه يعتقد أننى إنسان عاقل وأستحق كل خير. وأضاف أن الشبان العقلاء قليلون هذه الأيام، ثم حكى نكتة:

ذهب شاب من الخنافس إلى الحلاق فرشه بالـ «د .د. ت». وعندما بدأ يضحك لذلك، ضحكت أيضًا باعتدال ثم شكرته وتمنيت أن أكون عند حسن ظنه.

قال بصوت هادئ: فى الحقيقة يابنى أن الآباء يتركون لبناتهم الحرية هذه الأيام. لم يكن الحال كذلك على أيامنا. كان الأب يدبر كل شىء وما على البنت إلا أن تتزوج. أما الآن فإن الأب يعلم ابنته ولا يأخذ منها مليمًا بعد أن تتوظف وترفض كل من ينصحها أبوها بأن تتزوجه، وفى النهاية تختار هى من تشاء، ويكون على الأب أن يتحمل كل شىء رغم ذلك. ولكن على العموم نحن أسرة محافظة.

ـ بالطبع.

ـ طبعًا ليلى ليست كبقية البنات. ليلى لا يمكن أن تعصى أمرى. أنا ربيتها وأعرفها. عندما أرادت أن تشتغل قلت لها هل ينقصك شىء؟ قالت لا. قلت لها إذن لماذا تشتغلين؟ أنا علمتك لتكون الشهادة سلاحًا فى يدك لو حدث شىء لا قدر الله. قالت يا بابا كل زميلاتى يشتغلن.. أرجوك يا بابا.. أرجوك يا بابا. وفى النهاية وافقت. من كثرة إلحاحها ليس غير.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ بالطبع هذا...

ولم أكمل.

فقال: نعم؟

قلت: هذا هو السبب.

ـ بالطبع. عبد الستار بك كان زميلى فى المعلمين العليا. لكن ما علينا من هذا، أنت تقول إنك لا تعرفه. لكننى أقول لك وأرجو أن تسمع هذا جيدًا: أنا لا يمكن أن أوافق على شىء ليس فى مصلحة ليلى.

ـ أرجو إذا سمحت أن توضح لى.

ـ نعم، فى الحقيقة ليلى كلمتنى عنك أكثر من مرة. وقد سألت عنك وأنا أعرف الكثير من البيانات.. الكثير من البيانات.

قال ذلك وراح يبحث فى جيوب بنطلونه باهتمام، وخيّل إلىّ أنه سيخرج مستندات معينة، ولكنه فى النهاية أخرج منديلاً وراح يمسح وجهه، ويديه، وسألنى مرة ثانية:

ـ هل أفتح الشيش؟

ـ إذا أردت.

نظر إلى الشيش ثم قال ببطء:

ـ عندما كنت فى الجامعة، كنت تقيم عند خالك. أليس كذلك؟

ـ نعم.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ وأنت الآن تسكن وحدك.

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ لا أفهم.

ـ لماذا تركت بيت خالك وأقمت بمفردك؟

ـ تخرجت ولم يكن من المناسب أن أبقى عبئًا عليه.

ـ حقًا؟ ألم يكن ذلك لأن خالك غضب منك؟

ـ مطلقًا.

ـ يسرنى أن أسمع هذا. وبالمناسبة هذا سؤال حساس إلى حد ما وأرجو أن تسامحنى ولكن اعتبرنى كوالدك، الأرض التى فى البلد هل هى باسم والدك أم والدتك؟

ـ شرحت لسيادتك أننا لسنا أغنياء. إنها قطعة أرض صغيرة يزرعها والدى وأعتقد أنها باسمه.

ـ لا، أعتقد أنها باسم والدتك.

ـ ربما ولكنى لا أفهم معنى هذا، لم أقم فى البلد ولم أشتغل بالزراعة.

ـ ولا أنا ولكننى أفهم عدة أشياء. واحد زائد واحد يساوى اثنين. لماذا لم تقم عند واحد من أعمامك فى القاهرة؟

سكت وأخذت أدير الكوب الفارغ فى الصينية، ثم انتبهت على الفور فتركت الكوب مكانه وقلت بصوت منخفض:

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ أتعتقد حضرتك أن هذه مسألة مهمة؟

ـ أكثر مما تظن.

ـ إذن فالحقيقة أن هناك خلافًا بين أبى وأعمامى.

ـ ربما أكثر من خلاف. ربما قطيعة كاملة. أتعرف السبب؟

ـ كان هناك خلاف على الميراث كما أظن.

ضحك وقال:

ـ الميراث؟ ما علينا من هذا. أنا أصدق أنك لا تعرف الكثير عن هذه المسألة. هذا.. الخلاف كما تسميه.. موجود من قبل أن تولد ومن المؤكد أن والدك لم يحدثك عنه. ولكن الآن أرجوك أن تكون صادقًا معى. كل شىء بيننا سيبقى سرًا. وأنت تطلب أن تكون زوج ابنتى فمن حقى أن أعرف كل شىء.

ـ أنا لم أكذب.

ـ نعم أنت لم تكذب. ولكن الآن قل لى: لِمَ طلق خالك زوجته؟

ـ أتعتقد أيضًا...

ـ أرجوك! قل الحقيقة.

ـ صدقنى.. أقسم أنى لا أعرف السبب. كان خالى كتومًا فى هذا الأمر. أعتقد أن السبب هو أنها لم تنجب.

ـ لكنه ظل معها عشر سنين دون أن تنجب.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ نعم.

ـ وهو لم يتزوج بعد أن طلقها، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وإذن؟

ـ ربما لم يكن هذا هو السبب.

مال نحوى فجأة وأمسك بيدى الموضوعة على المنضدة الصغيرة بيننا، فارتجفت بينما راح يهمس ووجهه يكاد يلتصق بوجهى.

ـ أتعنى أنك لا تعرف أنه.. أنه.. قيل إن زوجة خالك كانت على علاقة بك؟

صرخت: كذب.

فقال: أرجوك. أخفض صوتك، أنا لم أقل إن هذا حقيقى. بل قلت: قيل ذلك.

ـ من قاله؟ كذب.. كذب حقير. من قال ذلك كاذب وحقير.

ـ من قال ذلك هم أعمامك.

ـ قالوه لك؟

ـ بالطبع لا، ولكنى عرفت. لا. لا تسألنى كيف عرفت. ولكن لماذا قالوا ذلك؟

ـ أنا لم أعرف أنهم قالوا ذلك.

ـ هل تزور خالك؟

www.ibtesaima.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أحيانًا.

ـ وهل يزورك هو، أولاً.. لا داعى لهذا السؤال. هل ذهب خالك إلى البلد مرة واحدة بعد طلاقه؟

ـ لا أذكر.

ـ هذه مسألة سهلة. كان يزور البلد مرة كل سنة، فى الإجازة، وينزل ضيفًا عندكم، عند أخته.

ـ نعم.

ـ متى كانت آخر مرة؟

ـ منذ.. منذ ثلاث سنوات.. منذ السنة التى تخرجت فيها.

ـ نعم، قبل طلاقه مباشرة. ولم يذهب بعد ذلك ولا مرة.

قلت: لماذا؟

فضحك ضحكة عالية كشفت أسنانا نظيفة لامعة لا توجد بينها فراغات وقال وسط ضحكته:

ـ أنا.. أنا.. الذى أسألك هذا السؤال.

لم أجب ورحت أتطلع إلى صورة الجندول المعلقة فوق رأسه. بدت مغبشة قليلاً، وعندما تحسست جبينى ابتلت يدى بعرق كثير فى وجهى وحول جفونى. مددت يدى إلى ياقة القميص وحاولت أن أفتحها فتعثرت أصابعى فى زرارها المحكم واكتفيت بأن حللت ربطة العنق قليلاً. قال الأب وهو يحاول النهوض وقد اكتسى وجهه بالجد:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ سوف أفتح الشيش.

مددت يدى نحوه بسرعة وقلت:

ـ لا داعى لذلك أرجوك! ما يهمنى الآن هو أن أعرف.. ماذا.. ماذا تقصد بالضبط؟

ـ ينبغى أن يكون ذلك واضحًا الآن.

ـ حضرتك تريد أن ترفض خطوبتى لليلى ولهذا تحدثنى عن... عن هذه الشائعات؟

قال وقد تصلب وجهه: أية شائعات؟

ـ هذه القصة الغريبة عن زوجة خالى.

قال وقد عاد يميل نحوى ويهمس:

ـ أنا لا أفهم.. هذه مسألة ينبغى أن تكون واضحة كالشمس. أنت من الصعيد، من عرب الصعيد. وتفهم هذه التقاليد أكثر منى.

ـ أية تقاليد؟ أرجو أن تكون واضحًا. لا داعى للف والدوران.

ـ سامحك الله. الحكاية كما أعلم أن خالك، وهو ابن عم والدك فى نفس الوقت كان الوحيد من الأسرة الذى يحتفظ بعلاقات طيبة مع أبيك، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ بسبب النسب طبعًا. كل الأسرة قاطعت أباك لأنه بدد ميراثه فى... لنقل فى المتعة.. كلهم ما عدا خالك.. وكان الرجل مستعدًا لتحمل تهديد بالقتل.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ضحكت وملت برأسى إلى الخلف فاصطدمت عينى بمجدافى الجندول مسددين كحربتين، بينما ارتفع صوته قليلاً وهو يقول:

ـ لا أعرف إن كنت تتجاهل ذلك أو تجهله.. ولكن فى ذلك الوقت ذهبوا إليه جميعًا، إلى خالك، وقالوا إنهم احتملوا كل ما فعله أبوك ولكنهم لا يستطيعون احتمال هذا (العار) كما سموه.. أى أن تكون زوجته على علاقة بك. وقالوا إنه إما أن يطلقها وإما أن يقتلوها ويقتلوك فى نفس الوقت.

ـ خرافة. شخص حقير أراد أن يشوه سمعتى فاخترع هذه القصة الخرافية.

ـ ربما، ولكن كيف تثبت أنها كاذبة؟

ـ هناك ألف دليل، أنا أقول لك إنها كاذبة. لست حقيرًا لدرجة أن أفكر، مجرد تفكير، فى زوجة خالى. لقد كانت.. كانت كوالدتى.. كوالدتى تمامًا.

ـ أنا لا أبحث ذلك الآن. وأحترم كلمتك. أصدق أنه لم يكن هناك شىء، ولكن ما الدليل على أن هذه الإشاعة لم تترتب عليها هذه النتائج؟

ـ إننى لم أسمع بها.

ـ هذا ليس دليلاً.. أنت تقول إنك لم تسمع بها، ما الدليل على أنك لم تسمع بها؟

ـ أقسم.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ليكن.. ومع ذلك فقد قلت بنفسك إن خالك كان كتومًا فى هذه المسألة. صحيح؟

ـ نعم.

ـ ومن غير المعقول أن يحكى لك هو بنفسه عن هذه المسألة.. وأنت تقاطع أعمامك وأولادهـــم. بل إنك لا تعرفهم. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ إذن فليس من المحتمل أن تسمع منهم أيضًا.

ـ هل كانوا سيكتفون بقتلى إذن؟

ـ لا أعرف، هذا شىء لا أفهم فيه. وأنت لا تعتقد بالطبع أننى ألفت هذه القصة لمجرد أن أقول لك أنى لا أريدك زوجًا لابنتى.. كان يمكن أن أعتذر ببساطة...

ـ وإذن؟

ـ إذن فالقصة حقيقية، لا أقول قصة العلاقة، فلا شأن لى بهذا ولكن قصة التهديد والطلاق. إلا إن كان عندك دليل ينفيها.

ـ نعم عندى بالطبع عندى. لو كانت.. لو كانت صحيحة لشاعت فى كل مكان ولعرفتها. لو كانت صحيحة لاستغلها أعمامى فى التشهير بى وبأبى.

ـ ويجلبون بذلك العار لأنفسهم؟ لا.. لقد كانوا يريدون حصر المسألة لا إشاعتها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ وإذن كيف عرفت أنت بها؟ من عبد الستار بك؟

ضحك ضحكة صغيرة وقال:

ـ رجل فى مثل مركزه يهتم بهذه الأمور؟.. لا.. لا.

ـ إذن كيف عرفت؟

ـ هذا شأنى، ولكنى أؤكد لك أنها ستبقى سرًا بيننا.

ـ ولِمَ تبقى سرًا ؟ أطلقها. أطلق هذه الإشاعة فى كل مكان.

ـ أنا لست شريرًا. وأرجوك أن تخفض صوتك.

ـ ولِمَ أخفض صوتى؟ أليس هذا هو ما تريد؟ ألا تريد أن تسمع ليلى هذه القصة الحقيرة؟ أليست هذه خطتك لإبعادها عنى؟ ها أنذا أقوم نيابة عنك بهذا.. سوف أسمعها بنفسى.. هاها.. زوجة خالى.. لِمَ لا تكون خالتى نفسها.. أو.. أو جدتى مثلاً؟.. ها.. ها.. ها.

انتهت محاولاته لإسكاتى بأن وقف وهزنى من كتفى وقال بصوت مرتفع إلى حد ما:

ـ كن رجلا. لو كنت أعرف أنك ستفعل هذا لما كلمتك أصلاً.. هل أنت طفل؟ أنت ضيف فى بيتى.

ـ أتريد أن أخرج؟

ـ لا، بل أن تكون رجلاً، وتسمعنى حتى النهاية. هل آتى لك بكوب ماء؟

ـ لا. شكرًا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنا آسف إن كنت قد ضايقتك. ولكن صدقنى. لم أكن أعرف أنك تجهل كل ذلك.

ـ كنت سعيدًا بأن أجهله.

عاد يجلس مكانه فى مواجهتى وشبّك أصابع يديه وراح يتطلع إلىّ صامتًا فقلت له:

ـ أنا أعتذر عما قلت.

قال وهو يلوح بيده:

ـ أنا أقدر شعورك.

قلت وأنا أقوم:

ـ شكرًا. هل تسمح لى بالانصراف؟

قام مرة أخرى ووضع يديه على كتفى حتى جلست وهو يقول:

ـ لا.. لم ينته كلامنا بعد.

ـ إن كنت قد فهمت كلامك فأنت تعتقد أننى إنسان سيئ السمعة ولا تريدنى زوجًا لابنتك. وأنا لا أستطيع أن أنفى هذه السمعة السيئة لأنه ليس عندى دليل ينفيها.

ـ أنا لم أقل إنك سيئ السمعة. لنقل إنك ضحية إشاعات.

ـ ليس هناك فرق.

ـ ثم إننى لم أقل إننى أرفضك زوجًا لابنتى.

ـ إذن ما معنى ذلك كله؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أرجوك أن تفهمنى.. أنا حريص على مصلحة ليلى.

ـ لِمَ لا تتكلم مباشرة؟

ـ ليكن.. أنت تريد الصراحة إذن؟ ليكن.. أنت تعلم أنه فى البنك، فى وظيفة مثل وظيفتك، فإن سمعة الإنسان هى أهم شىء.

ـ مرة أخرى؟ هل تلمح مرة أخرى؟

ـ لا، ولكن...

ـ مستحيل. أنا لن أقبل أى تلميحات من هذا النوع. قل ما تعرفه. قل كل ما تعرفه. أنا لا يهمنى شىء.

ـ أرجوك.

ـ ماذا عن العمل؟ ما من شىء يمس سمعتى فى العمل. إن كنت تشير إلى تهمة التبديد فقد برئت منها. النيابة الإدارية ذاتها برأتنى وحفظت القضية.. اكتفت بلفت نظر.

ـ أقسم لك أنى لا أشير إلى هذا. بل إنى لا أعرفه.

ـ لا. لم يعد ينفع معى هذا الأسلوب. ما دمت تلمح إلى ذلك إذن فاعلم: كانت مؤامرة مدبرة.. استغلوا حسن نيتى ودسوا علّى أوراقًا لا أعرف عنها شيئًا. النيابة ذاتها اكتشفت ذلك. لو كان تبديدًا لسجنت. أتسمعنى؟.. هذا واضح.. ولكن النيابة لفتت نظرى لأنهم قالوا إن حسن نيتى يعتبر نوعًا من الإهمال. أتسمعنى؟

ـ نعم. نعم. أنا أسمعك.

ـ أنا لست لصًا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لم أتهمك بذلك. هل تبكى؟

ـ لا، ولِمَ أبكى؟ هذا عرق. عرق.. انظر.

ـ إذن لِمَ لا تريد أن أفتح الشيش؟

قال ذلك وقام من مقعده وكنت لا أراه بوضوح، ولا أرى من اللوحة غير ألوان حمراء وصفراء.

قلت:

ـ لم أقل إنى لا أريد أن تفتحه. قلت إن هذا لا يهمنى.. لا يهمنى أن تفتحه أو لا تفتحه.. أريد فقط أن أعرف ماذا تريد؟

وضع يده فى جيب البنطلون. وقدم لى منديله بيد مترددة فقلت له:

ـ شكرًا. معى منديل.

وبدأت أمسح العرق من وجهى بعناية، فى جبينى وحول عينى، وعندما انتهيت لم أجده أمامى. لم يكن فى الغرفة كلها، ولكن اللوحة واجهتنى بملاحيها المطموسى الوجه. ثم وجدته يقف أمامى ويمد لى يده بكوب من الماء. شربت جرعة من الماء ولاحظت عندما عاد يجلس قبالتى أن هناك ذرات دقيقة من العرق تبرز على جبينه الأبيض المجعد. كان وجهه شاحبًا والتزمنا الصمت. قلت بعد فترة، وأدهشنى أن يخرج صوتى رفيعًا إلى هذا الحد:

ـ المفروض أن الجندول فى فينسيا.

قال: نعم؟ ماذا قلت حضرتك؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قلت وأنا أشير إلى اللوحة:

ـ هذه الصورة.. المفروض أن الجندول فى فينسيا. أقصد فى مدينة. ولكن هذه الصورة تجعله فى الريف. أقصد أن هذا خطأ.

مال بجذعه وهو جالس وراح يتأمل الصورة المعلقة وراء ظهره كأنه يراها للمرة الأولى، ثم التفت إلىّ وقال:

ـ نعم، أنت على حق. هل أنت مثقف فى الفن؟

ـ لا ولكننا درسنا ذلك فى التاريخ، فى المدرسة.

ـ أنا أيضًا درست ذلك. ولكنى لم ألاحظ.

ثم قال فى حدة مفاجئة:

ـ استمع إلىّ.. ليلى تحبك.

ـ وأنا.. جئت لأخطبها.

ـ ضع نفسك فى مكانى. أنت أبوها. أكنت تقبل؟

ـ كنت تستطيع أن تقول هذا منذ البداية. أنا آسف ولن أزعجك أو أزعج ليلى مرة أخرى. سأقول إنك رفضت.

مال نحوى وقال بسرعة وهو يهمس:

ـ لا. لا. لا. لا أريدك أن تقول هذا بالذات.

ـ أرجوك، ماذا تريد بالضبط؟

ـ إذن لنتكلم بصراحة كما اقترحت أنت.. هناك حكايات أو أقاويل معينة عنك يهمك ألا يعرفها أحد.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ نعم.

ـ لو شاعت هذه الحكايات عنك فى عملك أو حتى بين أصدقائك فيمكن أن تضرك.

ـ نعم.

ـ حتى ليلى نفسها يمكن أن تتأثر منها.. يمكن أن تصدقها.

ـ وإذن.

ـ من ناحيتى أنا لن أتكلم عن شىء.. أعدك بذلك.. ولكنى أرجو أن تتعاون معى.

ـ أتعاون؟ فى أى شىء؟ لو تكرمت.. لو..

ـ أرجوك ألا تضحك. أنا بحاجة فعلاً إلى مساعدتك. لو قلت لليلى إننى رفضتك فسوف تتشبث بك أكثر. أنا أعرف هذا: وسوف تكرهنى وقد أجد نفسى مضطرًا أن أحكى لها كل شىء.

ـ فهمت. هل أقول إذن إننى أنا الذى رفضتها؟

ـ لا. ولا هذا أيضًا. قل لها إننى قبلت.. إننى أعطيتك موعدًا آخر لنتفاهم. بعد أسبوع أو أسبوعين.

ـ ثم ماذا؟

ـ هناك طرق. أنت تفهم فى هذه الأمور أحسن منى بكثير.. هناك بنات داخل البنك، وبنات خارج البنك (ثم وضع يده على فمه وهو يضحك) وحسب ما أعلم فأنت تعرف كيف تتصرف مع البنات.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ أنت تريد منى أن...

قاطعنى وهو يلوح بيده:

ـ أنت تفهم جيدًا ما أريد. تستطيع أن تقنع ليلى بألف طريقة أنك عدلت عن الزواج، ولكن دعنا من هذا. هل تعرف الأستاذ عبد الفتاح رئيس قسم الشطب فى البنك؟

ـ نعم. ما علاقته بالموضوع؟

ـ ليست له علاقة. إنه صديق قديم. فى الحقيقة، وبينى وبينك، هو الذى عيّن ليلى فى البنك. رجل خدوم وطيب. سمعت منه أنهم يريدون أن يفتحوا فرعًا للبنك فى مصر الجديدة، وأنهم يريدون رئيسًا للفرع الـ.. ما هى درجتك؟.. أعنى كم سنة لك فى البنك؟

ـ لحظة واحدة من فضلك. هل تعرض أن تشترينى؟ هل هذه هى المسألة؟ أن أترك ليلى فى مقابل ترقية؟

قال وقد تصلب وجهه من جديد:

ـ ولِمَ أريد أن أشتريك؟ ماذا تملك لكى تضرنى؟ أنا أعرض عليك خدمة مقابل خدمة. أنا من مصلحتى أن تبعد عن المكان الذى تعمل فيه ليلى وأنت من مصلحتك أن تعمل فى الفرع الجديد.

ـ ولماذا؟

ـ قلت بنفسك منذ لحظة أن ملف خدمتك ليس نظيفًا تمامًا. هذه فرصة لرد اعتبارك.

ـ اسمع من فضلك. لا تحاول أن...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنا لا أحاول أى شىء.. أنت تحاول أن تنقض وعدك. أنت أخطر مما تصورت.

ـ أى وعد؟ اسمع، أنا لن أستسلم للتهديد. أنا أحب ليلى وهى تحبنى. سأقول لها كل شىء وسوف تفهم. أتسمعنى؟ هذا هو ما سأفعله.

أغمض عينيه ومال فى مقعده. كانت ذرات العرق الدقيقة قد تكاثفت فى ثنايا جبينه المجعد، متجاورة ومتبلورة، حتى بدا كسطح كوب مثلج، ضحك ضحكة خافتة وهز رأسه وهو مغمض العينين، وقال:

ـ نعم، نعم. أنا أعرف هذه الشجاعة. عرفت فى حياتى كثيرين يرفضون صوت العقل، والآن العشرة منهم بقرش، ولكن صدقنى ليست هذه هى الشجاعة، الشجاعة هى أن تعرف ما بعد هذا وأن تقبله.

ـ أنا أعرفه وأقبله.

ـ لا. أنت لا تعرف أى شىء.

ـ بل أعرف.. تستطيع أن تلوث سمعتى فى العمل، ولعلك تستطيع أن تنقلنى إلى بلد آخر، وتستطيع أن تملأ رأس ليلى بالشك منى...

ـ وأستطيع أكثر من ذلك صدقنى. أستطيع أن أنشر الإشاعة التى حرص أعمامك على إخفائها. ساعتها لن يعرف أحد ماذا يمكن أن يعمل أعمامك، أو أبوك، أو خالك.

ـ ولكن هذا مستحيل.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ما هو المستحيل؟

ـ أنت لا يمكن أن تفعل ذلك.

ـ ولِمَ لا؟

ـ تستطيع أن تفعل بى ما تشاء. أن تنقلنى، أن تقتلنى ولكن ما دخل أقاربى فى هذا؟

ـ ولكن أنت تريد أن تدمر ابنتى.. ابنتى نفسها. فلِمَ أكون حريصًا على أناس غرباء عنى؟ فكر. فكر فى ذلك جيدًا. أتعتقد أننى سأتردد؟ انظر إلىّ. وبالمناسبة هل تعرف أن خالك حاول الانتحار مرة؟

ـ اسكت أرجوك.

ـ كان ذلك بعد الطلاق مباشرة، ولم يعرف أحد من الأسرة.

ـ ماذا تريد منى بالضبط؟

ـ نقلوه إلى المستشفى فى حالة سيئة، ولكن...

ـ اسكت أرجوك، سأفعل كل ما تريد، ولكن أرجوك أن تسكت.

رجع فى كرسيه وقال:

ـ كان حكمى عليك منذ البداية أنك إنسان عاقل. لا.. لا تقم الآن. جفف عرقك قبل أن تخرج. قد يصيبك البرد فى الخارج.

* * *

جففت عرقى قبل أن أخرج. ولكن بينما كنت أنزل السلم تعثرت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قدمى وسقطت على وجهى. قمت بسرعة وبدأت أنفض التراب عن ملابسى وجسمى. استندت قليلاً على مقبض الباب الخار جى الكبير حتى هدأت. كان المقبض زهرة كبيرة مغلقة من النحاس.

خارج البيت كان الليل، وكان الهواء، وكانت العربات تمر بطيئة خلف بعضها وفى ظهر كل منها مصباحان أحمران، ووقفت أنتظر. لم يكن هناك برد. وعندما انتهت العربات أخيرًا عبرت إلى الرصيف المقابل، وكان هناك محل حلاق مزدحم بالمرايا. رأيت نفسى، ورأيت ترابًا فى كمى، وخدشًا كبيرًا متورمًا فوق حاجبى. تحسست الخدش بيدى. كان الجلد مهترئًا ولكن لم تكن هناك أى دماء. كان الحلاق يقف مستندًا إلى الباب وهو يضع يده فى جيب الجاكتة البيضاء. انتبهت إليه وهو ينظر إلىّ باهتمام. عندما التقت نظراتنا قال لى أن أدخل وآخذ قطنًا، ثم بدأ يضحك لنفسه وحوّل وجهه عنى. لم أرد. أنزلت يدى عن جبينى بسرعة وعبرت الرصيف مرة أخرى. نفضت كمى جيدًا أمام الباب. ولمحت ظلى فى الزهرة النحاسية اللامعة، ثم بدأت أصعد السلم من جديد.

(١٩٦٨)

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

الأب

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

قال لها: مرتبك على جزمتى.

فقالت: إذن دعه لى.

قال: ستأخذينه مع ورقة الطلاق.

سألت: أنت تهددنى..؟

فصرخ: أنت طالق.

كان ذلك فى الصباح. فى الغرفة الراكدة بهواء الأمس. وقف الزوج بالقميص والبنطلون يلوح بربطة العنق وقد احتقن وجهه المدور، بينما كانت الجاكتة فى الشماعة ملقاة على الملاءة القذرة المتكورة. وجلست الزوجة السمينة على طرف السرير وهى تتكلم بصوت خافت وتعبث بكم الجاكتة ووجهها للأرض. وعندما طلقها خطف الجاكتة وارتداها بسرعة وصفق الباب وراءه وهو يخرج من البيت.

ذهبت إلى بيت أبيها بعد الظهر محمرة العينين من البكاء فى المكتب. وأفتى أبوها بعد الغداء وهو يلبس جلبابًا مقلمًا وطاقية من قماش الجلباب بأن الطلاق الشفاهى باطل. وعندما حولت ابنته أنظارها الشاردة عنه وبدأت تكلم أمها حاول مرة أخرى فقال إن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

شيخًا مهما جدًا أفتى بذلك فى برنامج «نور على نور». ولكنه وجد الأم والابنة منهمكتين فى الحديث، فشعر بعدم أهميته وبأن أحدًا لا يريده، وانسحب إلى غرفته وهو يسعل سعالاً مفتعلاً.

قالت الأم وهى تمد نحو ابنتها ذراعًا ضخمة مزدحمة بالأساور الذهبية المدورة:

ـ لو سمعت كلامى لما حدث ما حدث.

فقالت الابنة: تعلمين أنه لا يريد أن ننجب الآن.

سألت الأم: وهل تحتاج هذه المسائل إلى استئذان؟

فردت الابنة: هو حريص. يحتاط دائمًا.

رجعت الأم فى كرسيها ذى المسند المذهب وأسندت رأسها عليه وهى تتنهد وقالت:

ـ ابنتى خائبة.

بدأت ابنتها تبكى من جديد فقالت الأم بلا مبالاة:

ـ لا تبكى. فى الليل سيعود كالكلب ويقبل الأقدام.

عاد فى الليل. ولعبت الأم مناوراتها المعتادة. تركته فى غرفة الجلوس بمفرده فترة طويلة ثم دخلت وحدها فى تثاقل وعدم اكتراث وسألته إن كانت معه ورقة الطلاق أم تستدعى هى المأذون. شرح هو أنه لا يقصد وأن المسألة ترجع فى الحقيقة إلى أن دمه متغير قليلاً هذه الأيام. فقالت الأم إن من يتغير دمه فإنما يتغير دمه على نفسه ولا ينبغى أن يتغير على بنات الناس.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وبعد التعنيف، والاعتذار، وبعد أن ذكرته بأن من بين من تقدموا لابنتها قبله فى حقيقة الأمر الطبيب والمهندس، وبعد أن دخلت الابنة وتمت الوعود المتبادلة بالتفاهم فى المستقبل جاء دور الأب فدخل الغرفة وبدأ يحكى حكايات عن التفاهم، وكيف أنه ظل طوال ثلاثين سنة يحل مشاكله مع زوجته بالتفاهم، ونظر لها لتؤكد ذلك ولكنها كانت تضع يدها على خدها وتنظر للأرض وبدا واضحا أنها لا تسمع شيئا مما يقول. وانتهى الأمر بأن خرجت الابنة مع زوجها.

فى الشارع كان الهواء باردًا، وسار إلى جانب زوجته صامتا وهو ينظر للسماء. كان الهلال رفيعا كحاجب امرأة ونجوم كثيرة كالجدرى فى السماء.. وفكر بأن كل شىء فى الحياة قبيح ومحزن.

قال لزوجته وهما يسيران فى الطريق المظلم: أمك هذه.. سوسة.

فقالت الزوجة بصوت متعب: سنبدأ من الآن؟

ـ لا، ولكن أريدك أن تعرفى. كانت وقحة، ولكننى سكت من أجل أبيك الطيب.

ـ لا داعى لهذا الكلام الآن. سنتفاهم فى البيت.

بدآ يتفاهمان فى الفراش، هامدين ومرتخيين. كان يضطجع على السرير رافعا وراء رأسه وسادة وقد راح يدخن سيجارة ونامت هى على ظهرها يغمر وجهها العرق. راحت تفكر فى أيامهما الأولى وكيف كانت سعيدة. لم تكن سمينة كما هى الآن، وكانت تنام ورأسها فى صـدره وهو يحيطها بذراعه ويتكلمان باستمرار طول الليل.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الآن لا يجدان شيئا يقال. ما الذى يجب أن تفعله لتعود الأمور كما كانت؟

قالت فى صوت خافت: أنا آسفة بسبب ما قلته فى الصباح عن مرتبى.

فقال: بالعكس. معك حق. أنا المخطىء. يجب أن ندبر أمورنا. أنا لا أرضى أن تبقى زوجتى بفستان واحد فى الشتاء.

ـ سأوفر من مصروف البيت.

ـ لا، هذا لا ينفع. سأمتنع عن التدخين.

ـ تعلم أن هذا مستحيل. يكفى أن تقلل منه.

ـ نعم.

وسكت قليلا ثم قال: لِمَ لا ننجب طفلا؟

رفعت رأسها قليلا، وحاولت مندهشة أن تتبين وجهه فى الظلام، وقالت فى حذر:

ـ كيف، ونقودنا لا تكفينا وحدنا؟

ـ لن يزيد طفل واحد شيئا. وأنت تريدينه من زمن. ما حقى فى أن أحرمك منه؟

سكتت متحيرة وراحت تفكر فيما يقول. ما قصده؟

أما هو فأنهى سيجارته ورقد واضعا الوسادة فوق رأسه وفكر: الآن انتهى كل شىء على الأرجح. سيعطيها الطفل، وسوف تسعد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

به، وسيظل مشدودا للوظيفة والبيت، ولن يسافر فى العالم كما كان يحلم. سوف تحيط به الشبكة كاملة. لقد حاول أن يتجنب هذه الشبكة، ولكن بلا فائدة. كانت معدة له من قبل، ولم يكن عليه إلا أن يقع فيها. كانت فتاة جميلة تقف على محطة الأتوبيس فابتسم لها: صباح الخير، نحن جيران هه؟.. أهلا وسهلا.. نمشى للمحطة التالية سيكون الأتوبيس أهدأ.. ممكن نتقابل بعد الظهر؟ سينما ريفولى فيها فيلم رائع.. أحبك.. وأنا أيضا، أفكر فيك طول الوقت.. متى ستتزوجنى؟... ليس الآن، عندى ظروف.. لماذا لم تجىء بالأمس؟.. مشاغل.. تهرب منى؟.. أبدًا والله.. لو تركتنى أموت، متى ستتزوجنى؟.. ثم الرسالة: «غبت شهرا، سوف أنتحر».. ثم اللقاء، والدموع: متى ستتزوجنى؟ فى الحقيقة ليس معى نقود.. نقود؟ لا تهتم. وأمها: لا تهتم، نحن لا نبيع ابنتنا.. ولكن الجهاز؟.. لا تهتم سيكون لها أحسن جهاز.

وأين كانت المصيدة؟ فى الجهاز؟.. فى رسالة الانتحار؟... فى ابتسامته الأولى؟.. وما فائدة كل هذا الآن؟

قام فى بطء وراح يرتدى ملابسه. سيخرج الآن ويتمشى وحده فى الليل، ويفكر فى كل شىء: سيفكر فى الأشياء العديدة التى كان يريد أن يعملها وفى الأشياء القليلة التى حدثت. وكان يظنها نائمة عندما رأى صدرها الضخم يعلو ويهبط بانتظام ولكن عندما استعد للخروج سمعها تقول:

ـ أين ستذهب الآن؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فكذب: سوف أشترى شيئا آكله. أنا جائع. تعلمين أنه لم يكن عندنا طبيخ اليوم. (وضحك).

فقالت بصوت ناعس: سوف تتأخر الليلة كالعادة.

ـ لا، لن أتأخر.

انقلبت على جنبها وغمغمت: أنشغل.. أنشغل عليك عندما تتأخر.

ـ لا داعى لأن...

ولكنها كانت قد نامت على كلماتها المألوفة، فنظر إليها لحظة، وضحك بصوت خافت وهو يطفىء نور الغرفة ويخرج.

(١٩٦٤)

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

الصوت والصمت

ـ ١ ـ

كان ذلك فى صباح يوم حار، عندما فاجأت الشمس الناس وسط سماء صافية شديدة الزرقة بعد أسبوع من البرد والغيوم والمطر. كانت برك صغيرة من الماء لا تزال تحت الأرصفة تنعكس عليها الشمس فى نجوم صغيرة خاطفة. أما الأشجار فقد غسلتها الأمطار، وانتبه إليها الناس لأنها بدت أشجارا خضراء حقيقية، وليست أشياء رمادية ومتربة على جانبى الطريق. كان كل شىء جديدا ولامعا، ولكن الناس على شاطىء النيل بدوا مرتبكين وسط ملابسهم الشتوية الثقيلة ـ فحل الرجال أربطة العنق، وراحت النساء يجففن وجوههن بمناديل صغيرة، وبدا نوع من الغضب والإحساس بالخديعة فى وجوه الجميع.

وأمام فندق (سميراميس) تجمع الناس الذين خرجوا أصلا ليقضوا النهار فى الشمس تحت الأشجار القليلة العالية.. وازدحمت تلك الأشجار فجأة بعصافير راحت تصوصو دون انقطاع. وعلى أحد المقاعد الحجرية جلست امرأة فى الأربعين، تلبس (طرحة) شفافة سوداء تبرز منها خصلة شعر لامع على جبينها، وتحيط بعينيها خطوط حادة من الكحل، وكانت تجلس بجوارها فتاة سمراء واسعة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

العينين، تلبس ثوبا سماويا دون أكمام وقد وضعت على حجرها (بلوفر) أزرق.

قالت الفتاة بصوت خافت: ماما. أريد أن أذهب إلى البيت، الدنيا حر هنا...

فقالت الأم: والبيت حر أيضا.

فتحت الابنة فمها لتتكلم، لكنها عدلت بينما وضعت الأم ساقا على ساق وشبكت يديها حول ركبتيها. راحت تهز ساقها البيضاء الممتلئة وتتأمل حذاءها الأسود اللامع دون غرض ثم ضحكت فجأة وقالت بصوت عال:

ـ البيت!... أربع حيطان كالقبر!.. ماذا تريدين أن تفعلى فى البيت؟ قولى لى.

نكست الابنة رأسها فى الأرض وقالت:

ـ إنه بيتنا.. لماذا يبقى الناس فى بيوتهم؟

ـ لأنه يكون لهم ما يفعلونه هناك.. أما أنا فليس عندى ما أفعله، وليس عندى أحد، عندى ابنة لا تكلمنى.

نظرت الفتاة أمامها مباشرة ورأت رجلا أشقر يعبر الطريق وقد تدلت من كتفه كاميرا.. اقترب منهما وابتسم ثم تقدم نحو حاجز الكورنيش ورفع الكاميرا إلى عينيه.

قالت دون أن تنظر إلى أمها: ماما، أريد أن أكمل تعليمى. أريد أن أعيد التوجيهية وأدخل الجامعة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ تقولين دائما هذا الكلام ولا تفعلين أى شىء. هل أمنعك أنا؟

ـ لا.

ـ إذن لِمَ لا تدرسين؟.. لِمَ تقولين ذلك كما لو كنت تلومينني؟

حولت الابنة رأسها نحو الرجل الأشقر لترى ما يصوره: كان مركبا مائل الشراع يعبر تحت الكوبرى ويجرى فوق حافته رجل يضع جلبابه فى فمه.. سمعت أمها تقول:

ـ أما الحقيقة فهى أنك لا تريدين أن تدرسى ولا تريدين أن تفعلى أى شىء. أنت تريدين أن تبقى فى البيت وتنكدى علىّ. هذه هى الحقيقة.

سكتت قليلا ثم قالت: لماذا لم تتزوجى الدكتور حمدى مثلا؟

التفتت الابنة نحوها فجأة وقالت بصوت عال: أرجوك ألا تفتحى هذا الموضوع!

قالت الأم بنفس لهجة الابنة: أرجوك! لا تفتحى هذا الموضوع!.. أرعبتنى!.. أكاد أموت من الخوف!.. ها.. ها.

ضحكت الأم ضحكتها العالية من جديد.. وكان شاب يضع (بلوفر) أخضر وراء ظهره ويربط الكمين حول عنقه يمر أمامهما فصفر صفيرا متقطعا وقال:

ـ أريد أن أضحك أنا أيضا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت الأم وهى تنظر فى عينيه مباشرة: اضحك مع أمك فى البيت يا شاطر.

نظرت الابنة للناحية الأخرى وتصلب جسدها، وأسرع الشاب خطاه وتظاهر أنه لم يسمع بينما مضت الأم تقول بلهجة عادية:

ـ الحقيقة أنه كان يناسبك تماما.. الدكتور حمدى.. يتكلم قليلا ويحتاج بشدة إلى إيراد عمارتك.

ـ وماذا أيضا؟

ـ ويكرهنى كما تكرهيننى.

ـ أنا لا أكرهك.

ـ بل تكرهيننى ولا تظنى أنى أهتم.. تعلمت من زمن ألا أهتم. عندما مات أبوك كدت أنا أيضًا أموت من الحزن. لم أكن أعرف فى الدنيا غيره، زوجونى منه وأنا طفلة تقريبًا وعندما مات تصورت أن الدنيا انتهت فلم أكن أخرج من البيت ولم أكن أكلم أحدًا. أتعرفين ماذا قال أعمامك عندئذ؟.. قالوا إن بواب العمارة عشيقى. أربع مرات طلبوا حضانتك فى المحاكم، ولم يكن يهمهم أنى سأفسد أخلاقك إنما كان يهمهم إيراد العمارة.

ـ أتعرفين أنك قلت لى هذا ألف مرة؟.. وقلت لى إنك لم تتزوجى من أجلى، وإنك..

ـ ولم ينفع هذا الكلام بشىء.

ـ ولكن ماذا تريدين منى؟.. أن أقول إنك مظلومة؟..

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

التفتت أمها لها وقالت وعيناها المكحولتان تضيقان قليلاً:

ـ لا، لست مظلومة. أنا لم يعد يهمنى أحد. أنا أفعل ما يعجبنى.

ضحكت الابنة ضحكة صغيرة وقالت:

ـ عن إذنك، سوف أتمشى قليلاً، وربما أعود إلى البيت.

وبينما كانت تقوم أمسكتها أمها من معصمها وقالت:

ـ تكلمى! كلما حاولت أن أكلمك تهربين منى.. ألست أمك؟.. اجلسى وتكلمى. اجلسى وإلا سمعنا الناس، أليس هذا هو كل ما تخافين منه؟

جلست الابنة على طرف المقعد ومضت أمها تهمس بسرعة وهى تلهث تقريبًا:

ـ قولى أى شىء وكفى هذه النظرات. هل أنت صنم؟

ـ ماذا تريدين منى أن أقول؟.. سأقول ما تريدين.

فتحت أمها فمها قليلاً ومضت تنظر إليها وهى صامتة ثم تركت معصمها فجأة وقالت:

ـ لا شىء. اذهبى إلى البيت أو اذهبى إلى جهنم.

وعندما همت الابنة أن تقوم من جديد قالت الأم وعيناها تلمعان فجأة:

ـ لن أعود إلى البيت على الغداء. سوف أمر على مكتب الأستاذ أحمد المحامى.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت الابنة وهى تضع(البلوفر) الأزرق على كتفيها:

ـ أنا لم أسألك.

ثم ابتعدت بخطوات مسرعة.

كان الناس قد انصرفوا من على الكورنيش تقريبًا، ولم يبق بجوار الأم الوحيدة غير بائع (سميط) ركن ظهره على السور الحجرى ونام فى الظل، ولم يعد يسمع شيئًا غير صوت العصافير، وصوت العربات التى تمر متلاحقة مخلفة فراغًا وراء أزيزها المكتوم.. وجاء بعد قليل رجل فارع الطول، يمشى بسرعة ويمسك فى يده حقيبة جلدية سوداء. مد يده الخالية بالعرض وتكلم من بعيد بصوت حاد وفى عبارات سريعة:

ـ انتظرت فى المكتب. لم يأت أحد.. ذهبت إلى البيت قالوا لى إنك على الكورنيش.. مشيت من أمام بيتكم إلى هنا وكدت أيأس فى هذا الحر ولكن...

جلس على المقعد الحجرى، فى مكان الابنة، وقال وهو يضع الحقيبة الجلدية على الأرض:

ـ حدثنى قلبى أنى سألقاك. ماذا تفعلين هنا فى هذا الحر؟

أشرق وجه الأم قليلاً وقالت وهى تضحك:

ـ أتشاجر مع ابنتى.

ـ مع من؟.. كيف؟.. هل تعرف أن تتكلم أولاً ؟.. لم أسمعها تنطق فكيف تتشاجر؟.. أم أنها داهية كأمها.. تلبس الطرحة وتعب الويسكى؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت الأم وهى تثبت نظرتها على شىء بعيد: اسكت الآن . أنت لا تعرف أى شىء.

تنهد واعتمد ذقنه بيده وقال:

ـ لا.. أنا لن أحتمل هذا.. وكيل النيابة فى المحكمة، وزوجتى فى البيت، ثم أنت الآن؟ لا، أرجوك ألا تقطبى وجهك، أنت الوحيدة التى أستطيع أن أتكلم معها، صدقينى، أرجوك ألا تقطبى. ما الذى يغضبك؟

ـ شىء لن تفهمه.

ـ هل العمارة باسمها؟

ـ نعم، أنا لا أملك أى شىء، أتعرف؟.. تستطيع أن تطردنى لو أرادت.

ـ إن كان هذا ما يشغل بالك فيمكن أن نفكر فى قضية و....

ـ لا، بالعكس. أنا أتمنى أن تطردنى.

ـ ما هذا التخريف، ومن أين يأتى الويسكى؟

ربتت الأم بيدها على يده اللزجة بالعرق وقالت بعد ضحكة متقطعة، وكأن كل شىء قد انتهى، فى خفة ودون مبالاة:

ـ دعك من هذا الموضوع. أنا متعبة قليلاً، هذا كل شىء. عندى صداع وأشعر بانقباض.

قال وهو يغمز بعينه:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أعرف علاجًا لهذا، علاجًا أكيدًا ومضمونًا.

ـ نعم أنت شاطر جدًا. فى الكلام وحده.

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ لا.. لا.. الحكم بعد العلاج. اليوم أنا متأكد.

ابتسمت الأم وقالت:

ـ أنا مسرورة لأنك جئت.

نظر فى ساعته وقال:

ـ ولكن يجب أن أنصرف بعد عشر دقائق. عندى موعد هام وبعده سأكون خاليًا. هل نلتقى عندك أو عندى؟

ـ لا يهم.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

- ٢ -

كانت الابنة تجلس على كورنيش كوبرى الجلاء على الحاجز الحجرى. وأمامها ولد وبنت يلعبان على الحشائش ويختلسان النظر نحوها بين فترة وأخرى. كانا يجلسان على الحشائش وظهرهما لبعض، تفصل بينهما خطوة واحدة وقد وضع كل منهما يده على أذنه وراحا يتكلمان فى تليفون وهمى، كانت تأمره أن يحضر أشياء للبيت لأن هناك ضيوفًا، وكان الولد يرد عليها بصوت عال جدًا أنه لا يستطيع أن يترك المكتب الآن، لأنه مشغول. قالت له أسماء الضيوف: «آبيه.. وطنط.. وطنط .. وطنط» فقال إنه سيأتى على الفور «فى التاكسى». ثم وضع السماعة، والتفتا لبعضهما وبدآ يتهامسان وهما ينظران نحو الفتاة الجالسة على الحاجز الحجرى.

تقدمت منها الطفلة ببطء وقد شبكت يديها فوق رأسها، وكان هناك زرار كبير يتأرجح فى مقدمة ثوبها الأصفر ويوشك أن يسقط. توقفت أمام الفتاة لحظة ثم نظرت إلى الولد الذى كان يمشى خلفها فى تردد فهز رأسه مشجعًا.

قالت البنت الصغيرة فى صوت خافت: يا أبلة، كم تبعد مصر عن هنا؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نظرت لها الفتاة فى دهشة ثم ابتسمت بالرغم منها وقالت:

ـ هذه هى مصر.

تقدمت منها البنت الصغيرة وقالت فى صوت أعلى:

ـ لا، هذه ليست مصر. هذه هى الجيزة.

ـ وإذن، فأين مصر؟

فكرت البنت قليلاً ونظرت للولد ثم قالت:

ـ مصر فى نافورة التحرير.

قال الولد، وكان فى حوالى السابعة، أكبر من البنت بسنتين وأكثر خجلاً:

ـ لا، منى لا تعرف، مصر بعد الكوبرى. عند المعرض.

قالت منى فى غضب: مصر عند النافورة. أليس كذلك ياأبلة؟

ـ نعم بالطبع، لماذا تسألين؟

ـ أريد أن أذهب إلى هناك.

ـ وحدك؟

فقالت منى وهى تضع يدها على ركبة الفتاة الجالسة دون كلفة: أنا وهو.

سألت الفتاة: وأين بابا وماما؟

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

أشارت الطفلة بيدها نحو البيت على النيل وقالت:

ـ هناك، فى البيت.

قالت الفتاة: سيغضب بابا لو ذهبت وحدك.

تقدم الولد منها وقال: لا، بابا لا يغضب منا. كان يغضب عندما نفتح التليفزيون بالنهار ولكنه الآن لا يغضب، منذ سافرت ماما..

أمسكت منى بوجه الفتاة وحولته نحوها وقالت:

ـ أنت أهلاوية يا أبلة؟

فقالت الفتاة: أنت أهلاوية؟

ـ أنا أهلاوية.. أنا وماما أهلاوية، ومدحت وبابا زملكاوية. أنت أهلاوية؟

ـ نعم.

فقالت منى: ومامتك وباباك أهلاوية؟

ـ نعم، نعم.

قالت منى: بابا كان يخانق ماما عندما يغلب الأهلى، ومنذ سافرت ماما لم يتفرج على الكرة.

ـ وأين سافرت ماما؟

فقال مدحت: عند خالى.. فى الإسكندرية.

قالت منى: ماما كانت مريضة، رقدت فى السرير شهرًا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فقال مدحت: رقدت أسبوعًا قبل أن تسافر.

قالت منى: مرة رأيت بابا يبكى فى الصالون، ثم جاءوا بسرير صغير ونقلوها عليه. قالت طنط سميرة إن ماما ذهبت إلى المستشفى، ولكن بابا قال إنها عند خالى.

قال مدحت: أنا كنت فى المدرسة عندما سافرت ماما.

وقالت منى: أنا كنت فى البيت وقبلتها. لكنها كانت نائمة.

حولت الفتاة رأسها ناحية النهر ولكن منى جذبت وجهها من جديد وقالت لها فى بساطة وبعينين واسعتين مندهشتين:

ـ صاحبتى آمال تقول لى مامتك ماتت. صحيح؟

قالت الفتاة: نعم؟ من؟...

قال مدحت فى غضب: ماما عند خالى. ماما فى الإسكندرية عند خالى.

قالت الفتاة وهى تقوم: نعم، ولكن لا تذهب إلى مصر. عد.. عد، عد إلى البيت.

ثم مشت بخطوات مسرعة وكأنها تجرى. وعندما وصلت إلى كوبرى قصر النيل كانت هناك حادثة أمام الكوبرى، وكان المرور معطلاً. انحنى جندى المرور على الأرض وراح يصنع خطوطًا بالطباشير الأبيض حول السيارة المهشمة، بينما وقف الناس يتفرجون.

وعلى الكوبرى كانت السيارات تقف متراصة من أول الكوبرى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

إلى آخره، وكانت هناك شمس صغيرة تنعكس على ظهر كل عربة، وراحت الفتاة تنظر فى دهشة إلى هذه الشموس الصغيرة البارقة، وإلى ظهور العربات اللامعة، وإلى العيون المتعددة التى تحدق من كل عربة، والأيدى الممدودة من النوافذ ـ وبدا لها أن كل هذه الأشياء تحدث لأول مرة، وأن جندى المرور المنحنى على الأرض بالطباشير، وهذا الزحام من العربات، وسرب الطيور البيضاء الذى ظهر فجأة فوق رأسها ثم هبط فوق المياه حتى كاد يلامسها بدا كما لو كان ذلك يحدث من أجلها وحدها، كما لو كان إنذارًا لا تستطيع أن تفهمه وامتلأت بالرعب.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

ـ ٣ ـ

وجدت أمها تجلس على نفس المقعد. وخيل إليها أنها ارتعشت ارتعاشة خفيفة عندما رأتها.

جلست بجوارها مباشرة حتى التصقت بها وشعرت بسخونة لحمها. وعندما تكلمت خرج صوتها خشنًا وغريبًا، قالت:

ـ ماما، فلنذهب إلى البيت.

نظرت لها أمها وضحكت ضحكة صغيرة ثم قالت بهدوء:

ـ أنا لن أذهب إلى البيت. سوف يمر الأستاذ أحمد بعد قليل فى تاكسى وسنذهب إلى المكتب، عندى قضية.

فتحت الابنة فمها لتتكلم ولكنها لم تستطع أن تقول شيئًا ومدت يدا مرتعشة أمسكت بيد أمها وتشبثت بها حتى اعتصرتها، فقالت الأم فى دهشة:

ـ أنت تؤلمينني بأصابعك المدببة، ماذا بك؟

ـ أنا.. أنا خائفة. أرجوك أن نذهب إلى البيت.

فقالت الأم وهى تسحب يدها وتفركها فى اليد الأخرى:

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ هل قابلت الدكتور حمدى أم ماذا؟

ـ أنا لا يهمنى حمدى، ولكن...

ـ نعم، أنت لا يهمك حمدى ولكنك تقرئين رسالته كل يوم وتبكين!.. لا تندهشى، لقد قرأتها أنا أيضًا. كانت فى يدك وأنت نائمة «أمك الساقطة»، أليس هذا ما قاله؟.. لا تصدقى أنه تركك لهذا السبب. كان يساومنى على إيراد العمارة فما رأيك فى هذا؟.. وعندما قلت له إن العمارة لك وإنك حرة جاء ليصالحك من جديد ولكنك رفضت. لِمَ رفضت ما دمت تحبينه؟

ـ أنا لا أحبه. أنا لا يهمنى حمدى ولا يهمنى شىء، ولكن فلنذهب إلى البيت أرجوك.

ـ ماذا سنفعل فى البيت؟

ـ أى شىء. نتفرج على التليفزيون. لا.. لا، لا داعى للتليفزيون.

ـ نتفرج على بعض؟.. حتى الكلام لا تتكلمى..

ـ سوف أتكلم، سأفعل أى شىء ـ ولكن أرجوك أن نذهب إلى البيت.

قالت الأم فى غضب: ألا يكفى هذا الآن؟.. أنا أعرف هذا الأسلوب الناعم. ماذا سأفعل لك فى البيت؟.. هل سأرضعك أم ماذا؟ أم تريدين أن تسجنينى فى البيت؟

ـ ليس هذا، ولكن...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ .. هذا هو كل ما تريدين وأنا أعرف. أن تسجنينى، فى البيت، ولكنى قلت لك أنا لست طفلة.. أنا أفعل ما يعجبنى، اذهبى وحدك إن شئت، اذهبى الآن.

كانت تتطلع إلى ابنتها بوجه محتقن لامع يغمره العرق، وعندما نظرت ابنتها إليها، ورأت الكحل حول عينيها وقد ذاب قليلاً، وامتد على أنفها فى ذرات دقيقة سوداء، شعرت لأول مرة بالرغبة فى أن تبكى، ولكن لم تكن هناك أى دموع، وإنما تقلص شىء حاد وسريع بداخلها، وكان عليها أن تنحنى لتوقف ذلك الألم.

(١٩٦٦)

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

اللكمة

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

حدث ذلك قبيل الظهر. كنت جالسًا إلى مكتبى أكتب مذكرة بحالتى الاجتماعية، كما أمرنى رئيس القلم عندما دخل رجل متوسط الطول، لم أره فى حياتى قبل ذلك، انحنى على مكتبى وأخذ يشتمنى بهدوء وبصوت رتيب. فتحت فمى لأنطق فلكمنى فى فكى بعنف ثم هوى بقبضته على رأسى. شاهدت نقطة من الدم تسقط على السطور التى أكتبها، وغامت عيناى على منظر هذه البقعة الحمراء وأطرافها تتشبع بالحبر الأسود.

لم يستغرق الأمر غير دقائق معدودة على ما يبدو. فحين أفقت كانت الكولونيا تبلل وجهى (وعلمت فيما بعد أنهم سكبوا على وجهى زجاجة صغيرة كانت فى حقيبة إحدى الزميلات). كان فكى يؤلمنى، وأجد صعوبة فى فتح فمى، وهناك التهاب فى عينى. وجدت نفسى فى حجرة رئيس القلم وقد تمددت على أريكة جلدية رفعوا رأسى على مسندها الصلب، ومن الخارج كانت تأتى أصوات ضجة شديدة فهمت منها أن السعاة يضربون الرجل.

وعندما جلست تبينت وجوه زملائى الموظفين. كان يبدو عليهم التأثر والفضول الشديد.

قال على (ومكتبه إلى جوارى): من هو؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قلت: لا أعرفه.

سمعت غمغمة الدهشة وقال على: إذن فهو مجنون.

قال رئيس القلم، وهو ينظر إلىّ نظرة توشك أن تكون عتابًا للإزعاج الذى سببته: لا. ليس مجنونًا. لابد أن أحدًا أوعز إليه.

قلت مندهشًا: كيف؟

فقال: أليس لك أعداء. مشاجرات شخصية أو خلافه؟

قلت وأنا أنهض: لا.

قال على: إذن فهو مجنون كما قلت.

مد رئيس القلم يده نحوى وربت على كتفى بخفة وهو يقول:

ـ اجلس.. استرح. (ثم التفت لعلى وقال بانفعال وعيناه تتسعان من خلف نظارته): لا تقل إنه مجنون. ليس مجنونًا. لماذا ضربه هو بالذات؟ مر بثلاثة مكاتب قبل أن يصل إليه، فلماذا اختاره بالذات؟

نظر علىٌّ إلىّ وكان يهز رأسه مع كلام رئيس القلم متظاهرًا بالاقتناع، ولكن حين توجه رئيسنا إلى مكتبه ليتكلم فى التليفون انحنى على نحوى وقال بسرعة وبصوت خافت:

ـ لا تخف. إنه مجنون.

فتح باب المكتب فى تلك اللحظة ودخل ضابط حرس الوزارة ووراءه جندى. حاول الضابط أن يظهر اهتمامًا ولكن كان واضحًا

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

أنه يرى الحكاية كلها تافهة، وسار فى أسئلته فى هذا الخط «هل لك أعداء؟».

لم يصدق عندما أنكرت وأراد أن يعرف شيئا عن حياتى الشخصية. قلت له إن عملى ليس متصلا بمصالح الجمهور، وإننى أعيش مع أمى الأرملة بمفردى، وليست بيننا خلافات مع صاحب البيت أو غيره، ولم يسبق لى أن تزوجت وطلقت.

كان ضيق الضابط يتزايد مع إجاباتى ويبدو عليه عدم التصديق لما أقول، وبدأت أشعر بنوع من الخجل لأنى لا أساعده فى عمله. ظل ساكتا ومطرقا لفترة وهو يمسك القلم، ثم جمع أوراقه وقام فجأة وجعلنى أوقع على ما كتب وهو يقول:

ـ يجب أن تبلغ عن أعدائك، أنت تعرف أن هذا من مصلحتك.

ثم خرج دون أن يلح فى ذلك وتبعناه جميعا. وفى ردهة مكتبنا الكبيرة وجدنا الجنود والسعاة يمسكون بالرجل، وازدادت قبضاتهم تشبثا به حين رأونا. كان زحام الموظفين شديدا ولكنهم أفسحوا لنا مكانا وساد الصمت فجأة.

وقفت أتأمل الرجل. كان قد ضُرب بقسوة فتلطخ قميصه بالدم وتمزق رباط عنقه الأزرق عند عقدته تماما حتى تدلى خارج سترته وأصبح على وشك الوقوع فى أى لحظة.

كان الدم ينساب من أنفه فى نقط سريعة متلاحقة تنزلق على شفتيه فى خطوط متعرجة ثم تسقط من ذقنه على ياقة القميص، وكانت إحدى عينيه مغلقة ومتورمة. لم يكن فى ملامحه شىء

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مميز، وأجهدت ذهنى ولكننى تيقنت أننى لا أعرفه أبدا، بل ولم أستطع أن أشبهه بأحد ممن أعرف. تقدمت منه فازداد التوتر فى جمهور الموظفين، ووقف الضابط صامتا يترقب. أما هو فلم ينظر إلىّ قط.

قلت له: هل تعرفنى؟

شاهدت عينه المفتوحة تختلج اختلاجة سريعة وطفيفة للغاية لكنه لم يرد.

ـ هل أنت متأكد أنك تقصدنى؟ أنا لم أرك قبل الآن، لماذا..؟

لكنه ظل مشيحا بوجهه عنى، وطال الصمت فأشار الضابط بيده إشارة موجزة، جر الجنود الرجل بعدها إلى الخارج. وأمر رئيس القلم الموظفين فعادوا إلى مكاتبهم فى هدوء وحيرة ثم لم تلبث أن علت ضجتهم وتعليقاتهم من المكاتب.

أخذنى رئيس القلم إلى حجرته وأغلق الباب، وحين جلس خلف مكتبه وجلست أمامه، خلع نظارته واستبدلها بأخرى ثم قال بهدوء وتركيز على الألفاظ:

ـ يحسن أن نفكر فيما قاله الضابط.

ونظر فى عينى مباشرة ثم قال:

ـ فى هذه المرة ضربوك. وفى المرة التالية قد يحاولون قتلك.

وبعد أن تأملنى طويلا قال:

ـ كانت عندى قطعة أرض فى البلد ورثتها عن المرحوم والدى.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فعلوا بى ما هو أسوأ من ذلك. واضطررت فى النهاية أن أبيعها دون سعر.

هممت أن أقول: «ليس عندى أرض فى البلد» لكنه قال وهو ينظر فى أوراقه:

ـ لا أريد أن أعرف أسرارك. تستطيع أن تنصرف الآن إلى البيت. استرح اليوم وفكر. فكر جيدا.

حين خرجت إلى الشارع كان هناك جمع من الناس يتوسطهم الضابط وهو يلوح بعصبية، وقال لى بائع السجائر الذى أشترى منه:

ـ تصور! المجرم هرب!.. تملص من الجنديين وجرى ولم يستطع أحد اللحاق به. دخل من الشارع الأيسر، وحين وصلوا الناصية كان قد اختفى.

تلفت نحو الشارع الذى أشار إليه وسمعته يقول:

ـ لا بد أنه دخل أحد البيوت..

ـ لا بد.. ربما..

قال بانزعاج: أتكون هناك عصابة فى المنطقة؟ أيكون قد اختفى عند شركائه؟

ـ من يدرينى؟

ـ إذن قل لى.. لِمَ فعل بك ذلك؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم أرد وانسحبت إلى شارع جانبى صغير، وأوشكت أن أعدو إلى أن ابتعدت تماما عن المنطقة كلها.

لم أكن أعرف شكل العالم فى هذه الساعة من النهار. كانت الشوارع تختلف عنها فى الصباح المبكر حين أراها وأنا فى طريقى للعمل، فلم تكن مزدحمة، ولم يكن الناس يسيرون مسرعين، ولا باعة الجرائد يصيحون فى كل مكان. وكان الربيع قد بدأ على ما يبدو، فقد كشفت النساء أذرعهن، وأخرجت المقاهى مقاعدها وروادها على الرصيف، ولم تكن فى السماء سحب.

جلست على أحد المقاهى وأسلمت جسدى للشمس، لكننى شعرت بالحر بعد قليل فانتقلت إلى داخل المقهى، وأصبحت بذلك قريبا من الراديو وكان عاليا جدا. ثم جاء صبى صغير يريد أن يمسح حذائى فرفضت ولكنه أصر. قال إنه سيأخذ منى قرشا واحدا لا أكثر، وقال إن أباه مريض وأنه هو الذى يجرى على الأسرة ويعالج أباه، وظل يكرر ذلك عدة مرات بنفس الطريقة. قلت إننى لن أمسح الحذاء، وحين ظل واقفا زعقت له فابتعد وهو يطرق الصندوق بفرشاته.

بعد قليل بدأت أشعر بطعم الدم فى فمى فقد أخذت أسنانى تنزف من جديد وحين شربت رشفة من الشاى الساخن أحسست بها توشك أن تسقط، فدفعت حسابى وغادرت المكان بسرعة.

فى البيت كذبت على أمى، وقلت لها إننى ارتطمت بأحد أبواب المكتب فجأة فأصيبت أسنانى. كانت تجلس متربعة على (الكنبة) فى الصالة الواسعة، ضئيلة فى ثيابها السوداء، وتعمل تسبيحات

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بإبهامها على أصابع يدها اليمنى، نظرت إلىّ طويلاً دون أن تصدقنى، لكنها قالت لى أن أضع بنًا فى فمى لأوقف النزيف ثم واصلت تسبيحها. بعد أن حشوت فمى بالبن فى المطبخ مررت من أمامها مرة أخرى فقالت بصوت خافت:

ـ تعود مخمورًا كل ليلة، فكيف سينتهى بك الحال؟

كانت تقول ذلك دائمًا وكأنها تحدث نفسها ولا تنتظر ردًا، فدخلت غرفتى واستلقيت على الفراش. فكرت فيما حدث ووجدت أننى ملزم بأن أفكر بسرعة، ملزم بأن أكتشف أعدائى قبل فوات الوقت.. من يدرى؟.. بقليل من الصبر وقليل من التركيز فربما أصل. ربما أنقذ نفسى. يجب أن أتذكر كل المشاجرات التى خضتها فى حياتى. فى الماضى البعيد، وأنا تلميذ مثلاً. لا، لم يحدث شىء عدا المعارك الصغيرة بسبب الكرة أو بسبب الشلل. مشاجرة واحدة أذكرها من وقتها لكنها أيضًا لم تكن شيئًا حقيقيًا. حدثت حين أحببت أول مرة وأنا صبى صغير. كانت هى أيضًا بنتًا صغيرة لم يكد صدرها ينبت. مازلت أذكرها وهى تقف فى شرفتها القريبة من الأرض.. تتكىء بمرفقيها وتنظر لنا مبتسمة ونحن نلعب.. لا تركز بسمتها على أحد لكننى أعرف أنها لى.. ألعب الكرة بحماس أكثر حين تظهر فى الشرفة.. أنهمك تمامًا فى اللعب لكيلا يشعر أحد أننى أهتم بوجودها.. وحين تلتقى عينى بعينها فى نظرة خاطفة وأنا أعدو، أو حين أقف لاهثًا لأجفف عرقى تنكس رأسها بسرعة وتنظر للأرض فأهرب مرة أخرى فى اللعب. وكان شىء ما على وشك أن يحدث بيننا حين بدأ الأولاد يتهامسون عنا. وكيف عرفوا ذلك السر الذى خبأته بكل حرص؟.. الذى لم أسمح حتى لنظرتى أن تبوح به؟.. لا

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أعرف. ولكن أخاها تشاجر معى ذات يوم، وضرب أحدنا الآخر، ثم لم تعد تظهر فى الشرفة، انتهت قصتنا من قبل أن تبدأ، وانتقلنا من الحى فيما بعد، وحين قابلت أخاها صدفة بعد ذلك بزمن احتضننى بقوة، وبدا أنه نسى كل شىء عن تلك الحكاية.

نعم، بالطبع لم يكن هذا شيئًا، وما من ذكرى ثانية عن شجار حقيقى فى صباى أو فيما بعد. والآن؟.. فى العمل مثلاً؟.. لا، ليست هناك خصومة بينى وبين أحد. لا صداقة ولا خصومة. مجرد زمالة. لا شىء أبدًا. وإذن؟

لا أعرف، وطعم البن يبعث الجفاف فى فمى وفى حلقى.. لم أعد قادرًا على التفكير.

فى المساء، بعد أن صحوت من النوم ذهبت إلى البار الذى ألتقى فيه مع كمال وسمير كل ليلة. كان فى الحقيقة مقهى صغيرًا، خموره رخيصة وضجته شديدة، ونعرف كل ما يدور فيه: فى أول الليل تكون الضجة نداء عاليًا على الجرسون. ومساومات عنيفة مع الباعة الجائلين، ثم يبدأ دور الضحك والغناء فى الأركان ومحاولات إسكات المغنين وفى آخر الليل ينفجر أحدهم بالبكاء أو يأخذ فى السباب بصوت مرتفع فيقذفون به خارج المقهى ويخرج الباقون بعد قليل، سيقانهم تهتز ورءوسهم محنية.

قال كمال عندما حكيت له ما حدث، وكان ساعتها يحاول أن يصطاد بائع السميط بعينيه:

ـ هذا غريب.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كنت أعرف أن كمال لا يدهشه شيء ولا يحاول التعليق على شيء، بل يكتفى معظم الوقت بمراقبتنا وسماع ما نقول أنا وسمير. وكنا نحترمه لأنه يقرأ كثيرًا. لم أستسلم لصمته هذه المرة، فقد أردت أن أعرف رأيه قبل أن يأتى سمير ويبدأ حديثه الذى لا ينتهى عن زوجته التى طلقها مرتين.

قلت لكمال وكان منهمكًا فى تقشير بيضة بمنتهى الحرص:

ـ ولكن ماذا يدفع رجلاً لا أعرفه إلى أن يضربنى؟

ـ ألف سبب.

ـ مثلاً...

ـ أن يكون مخطئًا. ربما كان يقصد شخصًا آخر.

ـ لكنه اختارنى من وسط المكتب كله، بل انتظر.. لقد ذكر اسمى وهو يشتمنى أنا متأكد أنه ذكر اسمى.

ـ آه!.. ها هو سمير.

لا فائدة. سمير يأتى ويجلس صاخبًا ساخطًا كعادته:

ـ ثلاثة أتوبيسات تمر ولا واحد يقف على المحطة. ما معنى ذلك إن كنت تسكن فى ضاحية بعيدة وتريد أن تخرج منها؟.. ما معناه من فضلكم؟ تحديد إقامة؟

قال كمال: معناه أنها مزدحمة.

فقال سمير: أليس هذا ما يخطر ببالك؟.. ما رأيك أنها لم تكن مزدحمة. فسر لى هذا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قال لى كمال وهو يبتسم: فسِّر له أنت.

نظر إلىّ سمير وقال: أتستطيع أنت؟ ولكن ما هذه الكدمة التى فى وجهك أولاً ؟

ضحك سمير طويلاً عندما حكيت له ثم قال:

ـ لا بد أنه زوج تلك المرأة.

ـ أية امرأة؟

ـ أى امرأة تعرفها.

ـ لا أعرف أى امرأة متزوجة.

ـ ولكن امرأة هى السبب وسوف تعرف. دعك من هذا الآن واشرب. الخمر هى علاجك، صدقنى. سوف تطهر أسنانك وتوقف النزيف من فمك. سوف تعطيك الشجاعة أيضًا، ومن يضربك مرة تضربه عشر مرات.. اشرب.. اشرب ولا تهتم.

كان ذلك أول الليل على كل حال. سمير يضحك، والبار كله يضحك. لم يعد أمامى غير أن أشرب وأسكت. وكان سمير على حق. فالخمر لم تخرجنى من حيرتى لكنها قذفت بى فى نوع جديد من الحيرة. طنين ودوار. شربت كثيرًا، وبدا الحائط الأصفر الذى يواجهنى أشد اصفرارًا، ورأيت فى المرآة الكبيرة التى تتوسطه وجوه الجالسين وأقفيتهم. رأيت الشعور المصففة بطرق مختلفة.. بفرق فى الجانب وبغير فرق والرءوس الصلعاء والرقاب النحيلة بحنجرة بارزة، والرقاب الغليظة بطيات منتفخة فى القفا، والرءوس المائلة على بعضها تتهامس فى جدية وتهتز هزات منتظمة، بمعنى أنها تفهم،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

والأصابع التى تهرش فى الرءوس أو تعبث خلسة فى الأنوف. وقلت لنفسى «لا يمكن أن يكون واحدًا من هؤلاء».

وفجأة بدا لى كل شىء مضحكًا. أخذت أضحك مع الباعة الجائلين. اشتريت أشياء مختلفة: (سميط، وجمبرى، وورقة يانصيب، وباغات للقميص). وساومت البائع الذى يحمل السجاجيد على كتفه على ثمن سجادة عاينتها بدقة، واشترك كمال وسمير معى فى المساومة كما نفعل كل ليلة. وقال البائع إنه لن ييأس منا وأنه سيبيعنا سجادة ذات ليلة. وضحكنا، ووضعت قدمى على صندوق ماسح الأحذية بعد أن انتهى من سمير. وحين خبط على صندوقه لأغير قدمى التفت له فابتسم لى وسألنى إن كنت لا أعرفه. قلت إننى بالطبع أعرفه.. ألا يمسح حذائى هنا كل ليلة؟.. قال إن هذه هى أول ليلة يأتى فيها إلى هنا.. ولكنه قابلنى فى الظهر فى مقهى وأننى زعقت فى وجهه. قلت لا أذكر ولكن حقك علىّ. ضحك وقال العفو، ولكن الروشتات معى فى جيبى، أتريد أن تراها؟.. التفت سمير وقال أى روشتات؟ نحن فى خمارة أم مستشفى؟ وضحكنا، وضحك الولد أيضا وقال أتريد أن ترى؟.. أرى ماذا.. احك هذه القصة للأستاذ سمير، أنا لا أفهمك.

التفت لسمير وأنا أضحك، لكن الولد انصرف ووجدت سمير يقول لكمال فى اكتئاب:

ـ بعثت إلىّ اليوم تطلب النفقة فقلت لها أن تأخذها من أمها. نعم أنا أعرف أنها ستأخذها فى النهاية لكننى أريد أن تدوخ فى المحاكم قبل ذلك.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قال كمال: ليس هذا عدلا.

حدق سمير فى كأسه شاردا وقال:

ـ لا تحدثنى عن العدل. أنت لا تعرف ما فعلته بى. لكل شىء سبب.

قال كمال: هذا صحيح.

وضعت يدى على فكى وقلت: ولكن ما حدث لى اليوم، ما سببه؟

قال سمير: أتذكر يا كمال؟.. من أيام المدرسة كنت أكلمك عنها وعن حبى لها.. اشتغلت كالحمار، ليلا ونهارا، لكى أوفر المال ونتزوج.. لكننى حمار، أليس كذلك؟

قال كمال بصوت خافت: أبدا. أنت أفضل منا.. أنت حاولت على الأقل.

شرب سمير جرعة كبيرة ثم التفت إلىّ.. قال وقد ثقل لسانه: ذلك الرجل.. زوج تلك المرأة.. لماذا ضربك؟

ـ ولكننى قلت لك إننى لا أعرف أى نساء متزوجات.

فقال: أقلت لى إنه عشيقها؟.. أنا آسف، ولكن ربما كان يريد أن يخيفك لتبتعد عنها.. يعرف أنها تخونه ولا يستطيع الابتعاد عنها.. يريد أن يخيفك.

قلت: أنت مجنون. أنا لم أتحدث عن أى نساء. أنا لا أعرف أى نساء متزوجات أو لهن عشاق. أتدرى؟.. أنا ليست عندى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أى أسرار أخفيها.. ولم أتشاجر مع أحد فى حياتى بحيث يكون عدوى.. ولكن هذا الرجل.. تقدم منى بمنتهى الهدوء وناداني باسمى ثم ضربنى.. فلماذا؟.. يجب أن أعرف لماذا؟

نظر إلى سمير دون فهم، ومال كمال نحوى وقال:

ـ ولماذا لا تنسى أنت هذه الحكاية؟ أنت شربت الآن ويجب أن تهدأ وتكون أعقل من ذلك، ثم قال وهو يصرخ تقريبا: أنا لم أعد قادرا على احتمال هذه الخرافة.

ـ ليست خرافة.

ـ بل هى خرافة. من يصدق شيئا كهذا؟.. إما أنك تكذب، وإما أنك بدأت تتوهم أشياء.

ـ أنا لا أتوهم.

ـ بل تتوهم.. تتوهم (صاح وهو يهتز من الانفعال) نحن لا يحدث لنا شىء. نحن لا نفعل شيئا. لا شىء غير أننا هنا الليلة. هنا غدا. هنا بالأمس. نحن هنا، فى خمارة صغيرة، حيث سنموت. نحن هنا حيث متنا بالفعل.. بلا ضربات، بلا ثمن، بلا شىء. لا شىء أبدا.

قال سمير: ليس من عادتك أن تسكر.

فقال كمال، وهو يضع وجهه بين كفيه: نعم. لا شىء.

ثم نسينا، ونظر إلىّ سمير فى عتاب، وساد الصمت.

لكننى كنت أعرف أننى لا أتوهم. هناك دماء لا تزال فى منديلى، وهناك فكى يؤلمنى، ثم هناك.. نعم؛.. نعم؛..

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هناك وجهه فى المرآة.

نعم، هو، بقميصه الممزق، بعينه المتورمة، بالتعبير الجامد فى وجهه.. سأقوم لأخنقه حتى يتكلم.

قلت لسمير وأنا أتشبث بذراعه وأتأهب للقيام:

ـ سمير؛ انظر، إنه هناك.

رفع كمال رأسه وسألنى سمير وهو يتابع إصبعى المرتعشة:

ـ من؟

ـ هو .. الرجل الذى فى الصباح.. فى المكتب.. الذى قلت لك..

قال: الذى يغنى؟

قلت: بل هناك، بجواره.. الرجل الذى يلبس القميص الممزق.. بجواره مباشرة؛ (يشبه شخصا ما أعرفه تمامًا.. الآن أوشك أن أعرف.. يشبه من.. من؟..).

قال سمير: أين؟.. لابد أنك سكرت. لا أرى أحدا هناك غير الرجل الذى يغنى.

بقيت متشبثا بذراع سمير وقد تجمدت إصبعى الممدودة، لا أستطيع حتى أن أخرج صوتا.. نعم، إنه لم يعد هناك.

قال كمال: لابد أننا جميعا سكرنا. هيا. سنوصلك.

بصعوبة قلت: لا، سأخرج وحدى.

* * *

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

فى الخارج كان الظلام، والهواء، والصمت، والسماء فوق تنزلق إلى أسفل باستمرار وهى مثقوبة بملايين العيون الصغيرة البارقة.. وقلت لنفسى إن الخمر هى السبب.. كل شىء فى مكانه ولكن الخمر جعلتنى أتخيل أشياء. قلت لنفسى هذه هى السماء وهذه هى النجوم.

لكننى كنت أرتعد. الدموع تملأ عينى ولا تريد أن تخرج. لا فائدة.. إنها تنزلق. وورائى سمعت الخطوات. إنهم ورائى. أسرعت فأسرعت الخطوات ورائى. لا فائدة. يجب أن أفهم ذلك الآن. وقفت وانتظرت.

ـ إلى أين؟

التفت ورائى. كانت مجرد فتاة مصبوغة الوجه، شفتاها الحمراوان غليظتان داكنتان وبجوار المصباح العالى كان وجهها يقسمه النور والظل. بقيت صامتا؛ فقالت مرة أخرى:

ـ إلى أين؟

ـ من ؟

ـ نحن بالطبع.

ـ .....

ـ إلى شقتك؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا أشرت إلىّ...؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنا لم أشر إليك.

قالت بغضب: أنت أشرت إلىّ وأنا واقفة فى أول الطريق أن أتبعك، وقد فعلت. فهمت أنك ستذهب بى إلى عربتك.

ـ ليست عندى عربة.

قالت وهى تصرخ تقريبا: لا عربة ولا مكان؟.. إذن لماذا أشرت؟. هل تلعب بى؟ أنا أيضا لا أريد أن أذهب معك. أمثالك لا يدفعون بل يسرقون الواحدة فى آخر الليل. أمثالك سرقونى الليلة بالفعل. أمثالك هم.. بل كلكم، كلكم كلاب.

فجأة انزلقت السماء على الأرض بسرعة. فجأة غمرنى الظلام تماما، وانفجرت الدموع من عينى. تفجر جوفى كله وبدأت أفرغه.. وحين انتهيت لم أكن أشعر إلا بطعم الدم على شفتى. استندت على حائط وحاولت أن أكتم شهقاتى. سمعت وقع خطوات فالتفت بسرعة. لم أجد المرأة ولم يكن بالطريق المظلم أحد سواى. لكننى كنت أعرف أن ذلك كله لم ينته بعد، فحين مددت يدى وجدتها هناك، كدمة متورمة فى فكى.

(١٩٧٠)

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

نهاية الحفل

بعد أن انتهى العشاء ظلوا جالسين فى أماكنهم يدخنون ويشربون.. تركت المائدة ودخلت غرفة الصالون وكنت أعرف أن سلوى هناك.. كانت تجلس مرتكزة برأسها على مسند المقعد الكبير وقد كورت قبضتها قرب أنفها تمثل حكاية لمنال التى وقفت مائلة بجسدها نحوها وهى تضحك. فاجأتنى عند ركن المدخل راقصة إسبانية من الصينى على قاعدة طويلة من الخشب، وهى ترفع ثوبها الأحمر المزركش وتكشف ساقا بيضاء لامعة.. اصطدمت قدمى بالقاعدة الخشبية فتمايلت الراقصة الإسبانية بشدة ومددت يدى معا أحيطها بسرعة، لكن شيئا لم يحدث. كفت الراقصة عن الاهتزاز واتزنت فى مكانها، ولاحظت أن الوردة الحمراء الصغيرة المرشوقة فى شعرها المفروق قد كسر نصفها فى حادث سابق، وأن هناك كشطا صغيرا بلون الفخار فى فخذها الأملس. تقدمت وكانت منال وسلوى تضحكان الآن بصوت عال، ومنال ترتكز بيدها على مسند المقعد، وقد ازداد انحناؤها نحو سلوى فتدلى قرطها الطويل حتى كاد يلامس كتفى ثوبها الأحمر.. حين اقتربت قلت لسلوى:

ـ أريد أن أتكلم معك.

نظرتا معا ـ صامتتين فجأة ـ ثم ضحكت منال وهى تعتدل، ثم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ضحكت سلوى وهى تنظر إلىّ، ثم قالت منال وهى تدير ظهرها لنا:

ـ تكلمى معه يا سلوى ـ وأحبيه إن أمكن.. يحتاج للحب.

خرجت منال من الغرفة وهى لا تزال تضحك، ونظرت سلوى إلىّ وهى تبتسم، وكان الجميع فى غرفة الطعام يضحكون ضحكة عالية مفاجئة.. أشارت سلوى إلى مقعد بجوارها فجلست ثم قلت:

ـ لا تصدقى كلام منال.

قالت: لماذا، ألا تحتاج حقيقة للحب؟

قلت: نعم، ولكن ليس بالصدفة، وليس بالواسطة.

مدت يدها إلى منضدة صغيرة وأمسكت كأسًا تكاد تكون فارغة قربتها من فمها لكنها لم تشرب. ظلت الكأس قرب فمها المفتوح لفترة، ثم نظرت إلىّ.. وكانت الشعيرات الحمراء الدقيقة قد بدأت تحيط بحدقتيها العسليتين الجميلتين. قالت وهى تضع الكأس مكانها مرة أخرى بيد مرتخية وتضحك بصوت خافت:

ـ كل طرق الحب جيدة. يحكى أبى ـ عن جدى ـ عن كل الجدود ـ أنه لم ير جدتى إلا فى ليلة الزفاف وأنهم عاشوا فى منتهى الحب. أتريد أن أحبك؟

شبكت يديها عند قلبها وهى لا تزال تضحك، ولكن نظرتها شردت بعد فترة وقالت بصوت مختلف يوشك أن يكون خشنًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لِمَ تريد أن تكلمنى؟

ـ فى الحقيقة أنا لا أعرف أحدًا هنا سوى مجدى ومنال. مجدى هو الذى دعانى. أردت أن أتعرف عليك.

ـ ولكنهم هناك على المائدة، أشهر كتاب البلد.. القصة والشعر والمسرح، لِمَ لا تتعرف عليهم؟

ـ أحببت أن أعرفك أنت. ربما لأنك صغيرة وجميلة.

قالت وهى عابسة تقريبًا: أنا لست صغيرة. أنا فى الخامسة والثلاثين.

* * *

لكنها كانت قد نسيت يديها مضمومتين عند قلبها ومن باب الصالون المفتوح بدأ الجميع يدخلون وبأيديهم كؤوسهم.. وكان الديك الرومى يبدو من فتحة الباب. تحت النجفة الضخمة التى تمثل شموعًا تحترق. وشرائح الليمون المدورة لا تزال تحيط بانتظام بجسده الممزق المنهوش، وعظمة فخذه العارية ترتفع فى الهواء.. وتحت الديك كانت تتناثر أطباق صغيرة غطتها قشور الموز والبرتقال.. وعوضت الثرثرة العالية صليل الأشواك والملاعق فظلت الحفلة حية صاخبة.. وعلا صوت منال فوق الجميع وهى تقول مشيرة لنا:

ـ هل رأيتم؟ وقعت سلوى فى غرامه بالفعل.

لكن أحدًا لم يسمع.. وتفرقوا فى الصالون الواسع.. على المقاعد والأرائك، وعلى الحشايا الجلدية الواطئة التى كتب عليها بخط كوفى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

«ألف ليلة» ـ و «ليالى شهرزاد» وجلس «رشدى الجميل» متربعًا على السجادة وقال بصوت مرتفع وهو يربت على ظهر مجدى: كل سنة وأنت طيبة يا منال. أنت وديكك الخاص، وضحك الجميع فقالت منال إنه فى الواقع فرخة، فضحكوا أكثر، واحمر وجه مجدى فاندفعت منال نحوه وقبلته فى فمه وقالت إنها تخزى عنه العين وأنه فى الواقع سبع، وضحكت وضحكوا.. وقالت راجية إن زوجها أيضًا سبع البحر، وضحكت وضحكوا.. وسألها مجدى ماذا تعنى فقالت إنه سر، وضحكت النساء بشدة.. وقال رشدى زوج راجية، وهو يشير نحوى بكأسه التى تناثر معظمها على السجادة، إياك إياك أن تتزوج، انظر إلى النهاية، فقالت راجية نعم إياك أن تتزوج إن كنت سبع البحر، وضحكت وضحكوا ـ وضحكت أنا وضربتنى سلوى على يدى وهى تهتز من شدة الضحك.. وقال مجدى فجأة إنه اشترى أسطوانة كريستين كيللر، فقالت راجية إن كريستين كيللر شخصيًا لا تنفع مع سباع البحر، وضحكت وضحكوا ـ لكنهم ألحوا فى سماع الأسطوانة وخرج مجدى وخرجت وراءه وقلت له فى غرفة الطعام إن عندى عملا فى الصباح الباكر وإننى أريد أن أخرج دون أن يشعر أحد، وقال مجدى ووجهه محتقن إنه لا يمكن بحال أن يسمح لى بالخروج الآن والسهرة لم تكد تبدأ، ومرق رشدى من جوارنا بسرعة وهو يضع يده على فمه واندفع نحو الحمام وسمعنا الباب يفتح بشدة وسمعناه يفرغ جوفه.. وقال مجدى إنه سيعتبرها إهانة بالفعل لو خرجت الآن.. ووجدت يدًا طرية تمسك بيدى، كانت سلوى، وقالت لمجدى اتركه لى، ودفعتنى أمامها نحو الصالة، وفتحت بابا فلفحنى الهواء وسحبتنى إلى شرفة مظلمة.

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

وقفنا عند سور الشرفة صامتين. كانت هناك نوافذ قليلة مضيئة وسط كتل المبانى المظلمة، وفى الطريق المعتم كانت تمر سيارة تبث نورًا خافتًا من مصابيحها الزرقاء.

قالت بصوت خفيض وضحكة خافتة:

ـ هل أنت من الشبان الغاضبين؟

ضحكت أنا أيضًا وقلت: لا، أنا من الشبان الصامتين.

قالت: لا حظت هذا. تجلس صامتًا وتراقب. تتوهم أنك أفضل منا.

ـ بالعكس، أجلس صامتًا لأننى لا أعرف أحدًا غير مجدى ومنال. أردت أن أتعرف بك ولكن..

ـ فى الواقع ليس من حقك.. أن تجلس هكذا وكأنك تحاكمهم. ليس هذا من حقك أبدا.

ـ لحظة أرجوك، ما السبب فى هذا الانفعال؟ أنا أردت أن أخرج لهذا السبب. أشعر أنهم ليسوا على راحتهم لأنهم لا يعرفوننى. ليس من حقك أنت أن...

ـ هل قرأت لى؟

ـ نعم.

ـ وما رأيك فى كتابتى؟

ـ تعجبنى قصصك.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أليست منحلة؟ الكلام عن الجنس وهذه الأشياء؟

ـ وما معنى هذا السؤال الآن؟ أن أكرر إعجابى؟

ـ وهل أعجب الشباب الغاضب؟

ـ اسأليهم. إن كنت تظنين أننى مندوبهم فأنت مخطئة.

ـ سمعت أنك تكتب الشعر.

ـ أحاول.

ـ رومانسى؟

ـ سنسكريتى. آسف، ولكن أسئلتك لا معنى لها.

ـ أعتقد أنك رومانسى. سحبتك من يدك لشرفة مظلمة ولم تحاول أن تقبلنى.

نظرت نحوها لكنى لم أستطع أن أتبين وجهها فى الظلام.

أمسكت يدها القريبة منى. كانت باردة جدًا. سحبتها نحو حائط الشرفة. لم تستند إليه. ظلت متصلبة. أمسكت كتفيها وقربت وجهى منها لكنها أفلتت منى بسرعة وقالت: لا. ثم خرجت من الشرفة وخرجت وراءها.

فى الصالة التفتت نحوى وقالت بلهجة عابرة: لا تخرج الآن سوف أوصلك فى طريقى.

* * *

فى الصالون كانت أسطوانة كريستين قد انتهت منذ مدة على ما

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

يبدو، فقد كان الجميع يضحكون الآن لشيء يقوله هاشم رأفت الذى وقف وسط الصالون يلوح بيده وهو يتحدث. حين جلست بحثت بعينى عن رشدى فوجدته يجلس عند قدمى راجية وقد أسند رأسه إلى ركبتها العارية التى انحسر عنها ثوبها اللامع، وكانت خصلة مبتلة من شعره الأسود ـ الأبيض تلتصق بجبينه المغسول، وراح يتابع حكاية هاشم بوجه شاحب وضحكات سريعة متقطعة، بينما وضعت راجية يدها على كتفه وهى تتطلع مبتسمة إلى هاشم الذى كان يقول وهو يلوح بنظارته:

ـ ... فاتفقنا على جلسة فى مكتب مدير المسرح وجاءت سهاد وجاءت مديحة وجلس المدير يتكلم عن أهمية الأخلاق فى الفن وعن التنافس الشريف... إلخ، ثم قال إننا يجب أن نبدأ من حقيقة معترف بها فى العالم كله، وهى حق المخرج فى توزيع الدور على من يشاء. وهنا رفعت سهاد حاجبها باندهاش ممثلة عظيمة وقالت إنه إذا كان هناك مخرج فى البلد لا يعرف مكانة سهاد فتحى فى المسرح، فالأحسن له أن يبيع طعمية. ثم التفتت إلى وقالت: «أنت المؤلف، ألا ينطق هذا الدور قائلاً: « أنا سهاد فتحى؟» قلت إننا جميعًا وعلى رأسنا مديحة نعرف من هى سهاد فتحى، وكل إنسان يعرف من هى سهاد فتحى وظللت أكرر ذلك دون أن أتورط بإبداء أى رأى. وهنا ازدادت عصبية سهاد فنظرت إلى مديحة مباشرة وقالت بحدة «كل إنسان يعرف إننى وصلت بموهبتى وليس من باب غرف النوم». والتفت أنا مذعورًا إلى مديحة لكنها ظلت تجلس مكانها وقالت لسهاد بهدوء «مهما قلت فلن أرد عليك فأنت فى سن جدتى». كان يجب أن تروا ذلك. كان يجب أن تروه. قامت سهاد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مندفعة كالصاروخ وحذاؤها بيدها وهجمنا عليها أنا والمدير فلعنت آباءنا وأمهاتنا بتنوعات مختلفة. وقالت إننا وكل المسرح على فردة حذائها الأيسر. وحين أجلسناها فى مكانها كانت تبكى وتشتم. واتجه المدير إلى مديحة يهمس لها، وبقيت بجوار سهاد فقلت إن هناك حقيقة بديهية يجب أن تعرفها وهى أن كل إنسان يعرف من هى سهاد فتحى.

لكن مديحة صرخت من مكانها بصوت عظيم «هى؟! أنا؟! أكلمها؟ Never وهنا نحتنى سهاد بقوة لتقول وسط دموع وباروكة مهوشة «أنت Never! أنا الـ Never يابنت الكلب!».

ومع ضحكة عامة عاد هاشم رأفت يجلس قبالتنا على حشية جلدية، وعاد الجميع يتحدثون، وجذبت راجية شعر رشدى حتى أمالت رأسه وقالت له:

ـ يا حبيبى أنا قلت لك Never تشرب ولم تسمع الكلام.. ستعيش شهرًا آخر على المسلوق.

قالت منال وهى تضحك: هذا أحسن، سيكتب قصصًا سهلة الهضم. لا أستطيع أن أكمل قصة لزوجك يا راجية. يكتب قصصًا مخيفة وغير مفهومة.

فرفع رشدى رأسه بصعوبة وقال وهو يخاطب منال، متظاهرًا بالجد:

ـ أنا أكتب للأجيال المقبلة.

قالت منال: ستقضون على الأجيال المقبلة بقصصكم هذه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قصص تقطع الخلف.

قال رشدى: إذن فنحن نؤدى أعظم خدمة للبلد. ولكن إذا كان هذا رأيك فى قصصى فما رأيك فى مسرحيات هاشم رأفت؟

دقت منال يدها على صدرها وقالت: وهل جننت لأرى مسرحية لهاشم رأفت؟

سمع هاشم ذلك فقال بصوت عال: يا منال حرام عليك. أنت والرقابة علىّ؟

وردت منال: أنا مندهشة من شىء واحد فقط وهو أن الرقابة تفهم شيئًا فى مسرحياتك وتعترض عليه.

قال هاشم: الرقابة مثقفة يا منال.

فقالت منال: احمد ربنا. تعمل دعاية مجانية لمسرحياتك السخيفة.

قال هاشم مشيرًا لنا: أرأيتم هذا الاعتداء؟ ودينى أتكلم فى السياسة.

قالت منال ومجدى فى صوت واحد: فى عرضك.

فقال: إذن اسحبى ما قلت.

قالت: أنت أعظم كاتب مسرحى فى الشرق.

قال: ولا بد من دور ويسكى جديد.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت: والبيت بما فيه، ولكن اسكت.

وحين قامت منال قالت راجية: وأنت ياسى مجدى، أتظن أنك ستنجو؟ ما معنى هذا الشعر الذى تكتبه؟ ما معنى قصيدتك الأخيرة التى فى مطلعها «أشواك تاج أبى الهول ـ جيفارا ـ تقتات لحمى أشعارا» أولا ما معناه؟ ثانيًا ما ذنب جيفارا، أو حتى ما ذنب أبى الهول؟

قال مجدى وهو يضحك: الشعر لا يشرح يا راجية.

قالت راجية: بلا خيبة. طول عمرنا نفهم الشعر، لِمَ أصبح الآن لا يفهم؟ ولكننى أعرف السبب.

قال مجدى: أنا فى عرضك يا راجية. لم ندع نقادًا الليلة لنرتاح. ثم ما هذه الاهتمامات الأدبية المفاجئة؟ لم أسمعك أنت ومنال تتحدثان عن شىء سوى المودة وسيرة الناس.

قالت راجية وهى تضحك: النميمة أصبحت مودة قديمة. نفضل الآن الهجوم المباشر.

كانت سلوى تتابع الحديث وهى تبتسم، دون أن تنظر إلىّ، ولكن حين انهمك رشدى فى حديث مع مجدى قلت لها:

ـ ما زلت أريد أن أتكلم معك.

اعتدلت سلوى فى مقعدها فجأة وقالت: هل أصرخ؟!.. مجدى؛ صاحبك هذا، سيصيبنى بالجنون.

فقال مجدى بلهجة عابرة: كفى هزلاً. أنت مجنونة من الأصل.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ثم عاد يستأنف حديثه مع رشدى الذى قال «ربما، ولكننى أشجع الخائفين، هل قرأت قصتى الأخيرة؟» فقال مجدى: «أفهمك، أنت تعنى اليسار العالمى متفرق، بينما اليمين...» وقاطعه رشدى: «ليس بالضبط.. ليس بالضبط..».

وعدت أقول لسلوى: لِمَ صرخت؟.. وما معنى هذا التمثيل؟

وضعت سلوى يدها على وجهها وهى تقول: لا، هذا مستحيل، مستحيل، أنت تسخر منى، ماذا تريد؟

قلت: أن أعرف ماذا كنت تريدين منى.

ـ متى؟

ـ فى الشرفة.

ـ أى شرفة؟.. آه الشرفة.. الشرفة..

كانت منال تقف أمامنا وبيدها زجاجة الويسكى وقالت لسلوى: تريدين كأسًا أخرى؟ هزت سلوى رأسها فقالت منال: ألا تكتفين أبدا يا بنت؟ ولكنها صبت لها كأسًا كبيرة، وصبت كأسًا أخرى لى.

قالت سلوى وهى تلوح بيدها وكأنها تستحثنى: اشترك معهم فى الحوار.. قل شيئًا.. قل شيئًا.

ثم رشفت جرعة كبيرة من كأسها، وكان بياض عينيها الآن محمرًا تمامًا.

قلت فجأة بصوت عال: هل قرأتم قصيدة سيد الزيان الأخيرة عن الفدائيين؟.. رأيى أنه انتهى كشاعر بعد ديوانه الثانى.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صمت الجميع فجأة، ونظروا إلىّ بدهشة ثم قام هاشم رأفت من مكانه وتقدم منى بخطوات مسرعة وصافحنى قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً. أهلاً.

وضحكت سلوى ضحكة عالية وراحت تضربنى على يدى دون أن تنظر إلىّ وهى تقول:

ـ اسكت ثانية أرجوك. اسكت.

وقال هاشم رأفت وهو لا يزال واقفًا أمامى: أنا أرحب دائمًا بالمناقشات الأدبية مع الشباب الجاد. حدد الوقت والموضوع. ما رأيك فى الشعر فى المعركة؟

قال مجدى: ارفع يدك عنه يا هاشم. ما زال بريئًا.

التفت هاشم رأفت نحو مجدى غاضبًا فجأة وقال: ما معنى هذا؟ وهل نحن مجرمون؟

قال مجدى: لا، ولكننا فقدنا البراءة مع الويسكى والمرسيدس. هذا هو الرأى الشائع.

قال هاشم: هذا أسخف رأى سمعته. هل منعتك المرسيدس أو منعتنى من...

صفقت راجية مرتين وقالت: وحدوه يا جماعة. الليلة عيد ميلاد منال. لا كلام ـ بجد ـ عن الأدب.

قالت منال: وقلة الأدب مباحة.

فقالت سلوى: بالكلام فقط.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ضربت منال على كتف مجدى وقالت: بالكلام طبعًا يا سبعى بالكلام.. وهل هناك غيره؟

عاد هاشم رأفت يجلس مكانه وهو يقول: أقترح التجديد فى النكت يا منال.

فقالت راجية: لا جديد فى النكت طالما لا جديد فى...

وهنا دق جرس الباب فقالت منال فى فرح: لابد أن هذا مدحت سالم.

قال مجدى وهو يتجه نحو الباب: لا مجنون سواه يأتى فى هذا الوقت.

شربت سلوى آخر ما فى كأسها وتنهدت بصوت مسموع.

فقال هاشم رأفت: صحة وعافية. ومد لها كأسه قائلاً: أتشربين هذه؟

قالت سلوى وهى تثبت نظرتها عليه: لا، لا. منال حبيبتى ستعطينى كأسًا أخرى.

دخل مدحت سالم وهو يفرد ذراعيه قائلاً بصوت صاخب: كل سنة وأنت طيبة يا منال.

ثم احتضن هاشم رأفت وأسند رأسه على كتفه وهو يقول: أنت حبيبى يا هاشم.

أنت حبيبى. من أيام الكلية رأيى فيك إنك عبقرى. لو لم تتزوج لأصبحت أول كاتب مسرحى مصرى عالمى.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت منال وهى تضحك: أنت طلقت زوجتك من زمن يامدحت، لماذا لم تصبح عالميًا؟

دفعه هاشم عنه برفق، وقال: ابتعد عنى وأجبها.

جلس مدحت على الأرض وقال: أنا عالمى بالفعل تمثيليتى كسبت الجائزة الأولى فى مسابقة التليفزيون العالمية بالإسكندرية. سنة.. سنة.. لا أذكر.. ق. م.

قال مجدى: صف شعورك وأنت كاتب عالمى.

قال مدحت: كما لو كنت عطشان وشربت.. هاتوا الويسكى ليروق الكلام.

صبت منال كؤوسًا جديدة، وقالت وهى تمسك الزجاجة مائلة أمام كأس سلوى التى مدتها بكلتا يديها، دون أن تسكب شيئًا: ألا يكفى يا سلوى؟ أنت شربت كثيرًا بالفعل.

قالت سلوى: ليس بما فيه الكفاية. كمان.. كمان.

والتفت مدحت سالم نحوى فجأة وقال: من الوجه الجديد؟

فقال مجدى: صديقى.. شاعر.

وقال هاشم بصوت متكسر: من الشباب.. الغاضب.

فقال مدحت: غاضب لِمَ يا بنى؟ يكفينا غضب ربنا.

قلت: لست غاضبًا. ها أنت ترانى فى منتهى السعادة.

قال مدحت: هذا رائع. خذ نصيحتى. لا داعى للشعر ولا

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

للغضب. أنا فى زمانى غضبت وكتبت الشعر فشحذت وتزوجت. كتبت مسلسلات للإذاعة فاشتريت سيارة وطلقت. كتبت للتليفزيون فأصبحت عالميًا. خذ نصيحتى واختصر أنت الطريق:

اكتب للسينما مباشرة.

ثم مال برأسه للخلف وقال: سلوى.. أنت فى منتهى الجمال الليلة. أرى ساقيك بالكامل من مكانى، هل تتزوجيننى؟

قالت سلوى: أنت قليل الأدب.

ثم أخذت تتعثر فى مقعدها لتمط ثوبها حتى ركبتيها والجميع يضحكون.

قال مدحت: تزوجينى يا سلوى لكى نتطلق.

وقالت راجية: انظروا!.. واثق أنه يستحق الطلاق. لا بد أنه سبع البحر.

قال هاشم رأفت فجأة بصوت غاضب: كفى! هذا لا يطاق.

وقال مدحت: لِمَ غضبت يا حبيبى؟ أنا طبعًا شربت كثيرًا قبل أن آتى.

سامحونى.. أنا.. لا يمكن بالطبع أن أتزوج سلوى. هاشم أنت تفهمنى طبعًا.

قامت سلوى من مكانها وهى تتمايل. وقالت: تعال معى.

ارتكنت علىّ تمامًا وهى تدفعنى نحو المدخل وساد الصمت فى الصالون، وتبعتنا منال حتى غرفة المائدة وقالت بصوت خافت:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنا حذرتك يا سلوى.

كانت سلوى تتشبث بذراعى وتتهاوى فأرفعها باستمرار لكنها جاهدت لتقول: أنا بخير يا منال.. أحتاج.. أحتاج لبعض الهواء.. سنقف فى الشرفة.. أنا سكرت خالص.. خالص.. خالص..اهتمى أنت بهاشم.

قالت الجملة الأخيرة بما يشبه الهمس وهزت منال رأسها. وهمست لى «اعتن بها» ثم عادت للصالون.

* * *

فى الشرفة تشبثت سلوى بالحاجز الحديدى وظلت تميل وتعتدل، ووقفت بجوارها ممسكًا بكتفيها. ولم تنفع هذه الطريقة فراحت تغمغم بألفاظ غير مفهومة وتراجعت متخبطة وأنا أكاد أحملها حتى استندت إلى حائط الشرفة وهى تحنى ظهرها وتمد ساقيها للأمام.

ظلت تستنشق الهواء ببطء وبصوت مسموع، وظلت تنزلق إلى أسفل باستمرار وأنا أحاول أن أرفعها لكنها فى النهاية تهاوت جالسة على بلاط الشرفة وجلست بجوارها. أمسكت بيديها الثلجيتين وأخذت أدلكهما وهى تهمس «أنا بخير.. أنا سكرت.. أنا بخير».

بعد فترة التزمت الصمت وأصبحْ تنفسها عاديًا، لكنها فجأة انتزعت يدًا غطت بها وجهها وأخذت تبكى بصوت خافت بينما قبضت بيدها الأخرى على يدى وظلت تضغط عليها بقوة.

سألتها: أهناك شىء أستطيع أن أفعله؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فهزت رأسها بشدة وهى تزداد ضغطًا على يدى.

بعد فترة قالت بصوت مبحوح: منديل إذا سمحت.

فأعطيته لها.

قالت وهى تحاول أن تجعل صوتها عاديًا: هل تشعر بالبرد؟.. وقبل أن أجيب قالت: احتمله من أجلى. (ثم حاولت أن تضحك وهى تقول) أنت المسئول.. أردت أن تتكلم معى.

قلت: ولكن هل أنت بخير الآن.. أعنى حقيقة.

ـ نعم.. نعم.. أنا بخير الآن. أنا لست بخير أبدًا.. أعنى حقيقة. لا بد أنك تعرف سرى.. كل إنسان يعرفه.

ـ أى سر؟

ـ ألم تحك منال لك؟

ـ لا.

قالت بصوت عادى: سر صغير. أنا أحب هاشم رأفت. ثم بدأت تدلك صدغيها وجبينها بيديها فسألتها:

ـ وهو؟

قالت: يحبنى. أظن ذلك.. يقول ذلك.. هناك فقط مشكلة تافهة كما فى الأفلام.. له زوجة. كنت مستعدة أن أقبل أى شىء، قبلت أى شىء.. لكنها.. زوجته، انتحرت مرة.. أقصد حاولت الانتحار مرة حين عرفت بعلاقتنا.. وبعدها..

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وعرفت أنها تبكى من جديد لكنها أخذت تمسح دموعها بسرعة واستمرار بظهر يدها وهى تقول: أنا لا أطلب أى شىء.. لا أريد أى شىء.. أريد فقط أن أراه.. لكنه يرفض، يرفض، يرفض باستمرار، قل لى ماذا أفعل؟

ـ أظن يجب أن تحاولى أن... الحل الوحيد أن تنسيه.

ـ ولكن ماذا أفعل؟ يجب أن تقول لى ماذا أفعل.. أنت تسخر منى.. لا ترد.. لا يهمنى. أنتم تسخرون منى، تقولون رومانسية. لا يهمنى. أنا رومانسية، تافهة، مجنونة، نعم أنا أى شىء. ولكن ماذا أفعل؟ يجب أن تقول لى.. يجب.. يجب.

ـ اهدئى أرجوك، لا أحد يستطيع أن يقول لك. لا أحد يستطيع أن يساعدك سوى نفسك.

ـ لا أريد حكمة.. أريد حلا.. أرجوك.

قلت وأنا أنهض: أولاً يجب أن نخرج من هنا. أوشكت أن أتجمد.

مددت لها يدى، فنهضت بصعوبة، ومسحت وجهها بالمنديل مرة أخرى قبل أن تخرج.

فى الصالة وضعت يدها على كتفى وأنا أغلق باب الشرفة.

ثم قالت: صدقنى أردت أن أحبك. أردت بالفعل.

ضحكت وقلت: واصلى المحاولة.

* * *

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

فاجأتنا سحب التبغ فى الصالون. وتقدمت سلوى أمامى وهى تحاول أن تكون خطاها متزنة، وتعمدوا جميعًا ألا ينظروا إلينا لكى لا يحرجوا سلوى وحين جلسنا استأنف مدحت حديثه فقال: عندى سبعة اعتراضات على الزواج لن أذكر الستة الأولى، أما السبب السابع فهو أنه ـ ببساطة ـ لا يطاق.

قالت راجية: وما رأيك فى اعتراضات الزوجات؟

قال مدحت: كنت زوجًا لا زوجة. حدثينا أنت.

قال هاشم رأفت: هذا الحديث ممل يا مدحت يشبه ما قلته فى المرة السابقة والمرة قبل السابقة والمرة التى قبلها.. يشبه ما تقوله دائمًا.

قال مدحت: إذن حدثنا أنت. أو أنت يا مجدى.

قالت راجية: هيا يا مجدى ـ قصيدة أخرى عن جيفارا.

قال مجدى وهو ينظر لراجية نظرة ثابتة بعينين محتقنتين:

ليكن.. جيفارا.. إنى أموت.. أموت.. أموت.

فقالت راجية ضاحكة وهى تنظر لمنال: لا وحياتك. بل أنت على قلبها لطولون.. طولون.. طولون.

قال مدحت: حدثنا أنت يا رشدى. لم نسمعك من مدة.

فقال رشدى: أنا منسحب من زمن يا مدحت معدتى تؤلمنى. وقد أخذت قرص دواء وأنا الآن سعيد.

قال مدحت: ما هذه الأمراض الغريبة المنتشرة هذه الأيام؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الحساسية وعسر الهضم والغرائب الأخرى؟ تقول أمى إن أبى كان يشرب كوبًا من السمن البلدى كل صباح. وقد عاش حتى الثمانين ولم يمرض أبدًا.

قال مجدى: لابد أنه إقطاعى.

فقال مدحت: أى إقطاعى الله يقطعك. كان مأذونًا.

وضحك الجميع الضحكة الأولى منذ دخلنا فقالت راجية: فهمنا سر تشجيعك للطلاق يا مدحت.

فقال: بالضبط. أروج مهنة أبى. كان مبروكًا رحمه الله. فى ليلة وفاته أجرى ثلاثة طلاقات.

قالت راجية: لعنة الله عليه وعلى خلفته.

وقال رشدى: أنت ورثت بركته يا مدحت. لك الآن مسلسلتان، واحدة فى الإذاعة وواحدة فى التليفزيون.

قال مدحت: نعم، موتوا بغيظكم. على فكرة هل سمعتم الإذاعة؟.. كان هناك بلاغ عسكرى فى نشرة الساعة...

صفقت راجية وقالت: الليلة.. عيد ميلاد.. منال.

وقال رشدى: أنت يا مدحت كبنى آدم لا تطاق، ولكن لو بدأت الكلام فى السياسة والحرب فسوف أنتحر.

فقال مدحت: لا بأس، سأؤدى بذلك خدمة لراجية.

وضحك بمفرده، ثم حدث صمت، وبدأ مدحت يصب لنفسه كأسًا جديدة وهو جالس على الأرض ثم قال: على فكرة أنا أكثركم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وطنية برغم كل شيء. تطوعت ثلاث مرات. مرة سنة ١٥ ومرة سنة ٦٥ ومرة سنة ٧٦. ثلاث مرات تدربت على المشية العسكرية وضرب النار وأنا الآن جاهز تمامًا.

قال مجدى: سوف نذكر ذلك حين نكتب تقريرنا عما دار الليلة (ثم غمز بعينه بطريقة مكشوفة لرشدى وابتسما معًا).

لكن مدحت مضى يقول: نعم. أنا الآن جاهز تمامًا. وفى الوقت الراهن أضع قلمى فى خدمة المعركة.

قال هاشم رأفت: اسكت يا مدحت.

بدأ مدحت يدندن: بلادى.. بلادى.. لك حبى، ثم التفت لهاشم وقال: على فكرة يا هاشم أنت تفهم فى الموسيقى. هل هناك نشيد قوى لسيد درويش مثل بلادى بلادى غير معروف؟.. أريد أن أستخدم لحنًا جديدًا فى تمثيليتى.

خلع هاشم رأفت نظارته فجأة وقذف بها بعيدًا ثم قال صارخًا وهو يقف على قدميه: ماذا تريد منى؟ اكتب عنى ما تريد، أنا لا يهمنى.. أتفهم؟ وأنتم.. ماذا تريدون منى جميعًا يا أولاد الكلب؟.. لماذا أنتم ضدى؟.. ما الذى فعلته؟ كل كلمة كتبتها شريفة.. شريفة.. أتسمعون؟.. كل كلمة كتبتها.. أنا فى سنة ٦٤ كنت على كوبرى عباس.. أين كنت أنت؟ وأنت؟.. ثم التفت نحوى وقال: وأنت أين كنت؟ على حجر أمك؟

قامت سلوى فجأة والتقطت نظارة هاشم من على السجادة واحتضنته بذراعيها وقالت: اهدأ يا هاشم.. اهدأ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لكن هاشم دفعها بعيدًا عنه وقال: وأنت أيضًا، ابتعدى عنى. ماذا تريدين منى؟ ماذا تريدين؟ أنا طفح بى الكيل.

عادت سلوى تجلس مكانها وشفتاها ترتجفان وظل هاشم يجول ببصره فى الغرفة ثم جلس ببطء وهو يرتجف.

قام مدحت مترنحًا وهو يقول: إذا بدأ هاشم رأفت سنة ٦٤ وكل ذلك، فمعناه أن وقت الانصراف قد حان.

لكن رشدى أجهش بالبكاء فجأة وهو يقول «هذا حرام.. حرام.. نحن لا نستحق ذلك.. كل هذا حرام» ثم وضع رأسه بين يديه وظل يبكى.

قالت راجية وهى تقوم: وإذا بدأ رشدى فى البكاء فمعناه أن وقت الانصراف قد فات من زمن.

بدأت حركة الانصراف، لكن رشدى رفض أن يقوم من مكانه واشتد بكاؤه، فاضطرت راجية أن تحمله بمساعدة مجدى وبدآ يجرانه من تحت إبطيه ولكن حين أبصر رشدى بهاشم اندفع نحوه حتى كاد يسقط وأراد أن يعانقه. تصلب هاشم وأخذ يدفع رشدى بعيدًا عنه وهو يقول «لا يا رشدى.. أفق.. يجب أن تفيق..» وعاد مجدى وراجية يجذبان رشدى بصعوبة بينما مد هاشم يده نحو منال وهو يقول «أنا آسف يا منال، أرجو أن تسامحينى»، فصافحته منال بقوة وهى تقول «أسامحك لماذا؟.. مَنْ يهتم؟.. أنت عبيط؟»

وبدأت المجموعة تتحرك نحو المدخل ببطء شديد وسط عبارات صغيرة متفرقة وأمسك مدحت بالراقصة الإسبانية وقبلها، وضحكت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

منال وقالت «كانت هدية من مجدى فى فترة الخطوبة.. كسرها ابنى ذات مرة لكننا أصلحناها» ـ ثم بدأت تتحسسها برفق شديد.

كانت سلوى تقف إلى جانب، ونحن نستمع إلى حديث منال، فنظرت إلىّ بعينين متورمتين وقالت «كنت أحب أن أوصلك. وعدتك بذلك لكننى لن أستطيع أن أقود العربة. ستوصلنى راجية فى طريقها. هل تأتى معنا؟ قلت «شكرًا، بيتى قريب، وأنا أحب أن أمشى».

عند باب الشقة تبادلت سلوى وراجية القبلات مع منال، وقال رشدى بصوت رفيع وكأنه يبكى:

ـ كل سنة وأنت طيبة يا منال.

فضحك الجميع.

وعند الباب تقدم هاشم من سلوى ثم قال بصوت خافت:

ـ أنا آسف يا سلوى. آسف لما قلت. آسف لما فعلت. أرجو أن تسامحينى.

أنت تفهمين، أليس كذلك؟

فقالت سلوى ببسمة صغيرة:

ـ لا تعبس هكذا. لم يحدث شىء، أنا أفهم بالطبع، ولم يحدث شىء.

(١٩٧٠)

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بجوار أسماك ملونة

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

قالت فى التليفون. ولكن لماذا تريد أن ترانى؟

قال.. لأنى أحبك.

صمتت.

قال بصوت مرتفع: «آلو.. آلو..»

فقالت: أنا معك..

ـ متى أراك؟

ـ لا أعرف.. أقصد غدًا.. سنلتقى فى المكتب بالطبع.

ـ لا.. ليس فى المكتب.. هناك أشياء مهمة لابد أن أقولها لك.

ـ ألا يمكن أن نقولها فى التليفون؟

ـ لا.. لا أستطيع.

ـ أنا آسفة.. يجب أن أنهى هذه المكالمة الآن.. أسمع صوت ماما فى الصالة.

ـ إذن الساعة ٦ فى الشاى الهندى.. أرجوك.. سوف أنتظر.

ـ لست متأكدة.. سأفكر.. ولكن لست متأكدة.. لابد أن أضع السماعة الآن.. باى.. باى..

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فى الخامسة والنصف. كان يجلس على كرسى من الجلد الأحمر.. وبجواره سمكتان حمراوان.. تسبحان.. وسمكة سوداء صغيرة تقف ساكنة فى الحوض الزجاجى تحرك ذيلها وفقاعات من الهواء تتحرك خلال أنبوبة صغيرة فى الحوض.

كان نظره مثبتًا على الباب الزجاجى. خلفه كانت تجلس مجموعة من البنات يتكلمن بفرنسية يتخللها (أما.. ووالله العظيم.. وجنان)، وأمامه فتاة وحيدة على منضدة صغيرة. كانت قد فرغت من شرب الشاى فشبكت يديها على صدرها. ومالت برأسها على المسند. ووضعت ساقًا على ساق. وكلما التقت عيونهما حولت رأسها نحو الباب.

فى السادسة جاء اثنان من الهنود. واستأذناه باللغة الإنجليزية فى الجلوس. هز رأسه مرتبكًا. فجلسا وطلبا الشاى. وبدآ يتحدثان بصوت خفيض. كان أحدهما يلبس بذلة طيار. والآخر يلبس بذلة داكنة وربطة عنق لا معة. شعره أبيض لكن وجهه شاب وبشرته ناعمة.

فى السادسة والربع جاء شاب طويل صافح الفتاة الجالسة أمامه. فمدت له يدها دون أن تتحرك. وظلت فترة تستمع إلى حديثه صامتة. وعيناها مثبتتان فى وجهه.

فى السادسة والثلث.. دخلت هى من الباب الزجاجى. ووقفت تتطلع. فنهض من مكانه. توجهت نحوه بخطوات بطيئة، نظرت للهنديين. فابتسما. وهزا رأسيهما بهدوء. هزت رأسها دون أن تبتسم ثم جلست بجواره.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

كانت تلبس ثوبًا بنيًا بلا كمين. وعلى كتفيها بلوفر أصفر عندما جلست انحسر الفستان حتى منتصف الفخذين. فنزعت البلوفر وغطتهما. وظلت تربت على البلوفر بأصابع طويلة بيضاء، أظافرها تلمع بطلاء لا لون له. فى شفتيها كان روج خفيف. وفوق جفنيها يلمع شىء أخضر. لم تكن تشبه نفسها فى المكتب.

قال لها: ماذا تشربين؟

تنبه أنه يجب أن يرفع صوته قليلاً لتسمعه وسط الضحكات والكلام والموسيقى الهندية وأصوات الملاعق والفناجين.

نظرت حولها. وقالت: إن المكان مزدحم.

وقف أمامهما الجرسون النوبى بعمته الهندية. فقالت إنها ستشرب أى شىء.

فقال إنه لا يوجد سوى شاى.

عندما انصرف الجرسون. قالت إنها لا يجب أن تتأخر. لأنهم ينتظرونها فى البيت.

مال الطيار الهندى نحوه مبتسمًا. وسأله إن كان يعرف الإنجليزية.

قال إنه يعرفها قليلاً.

فسأله الطيار شيئًا عن خان الخليلى.

أجاب بأن خان الخليلى بعيد. ولكن الطيار ظل ينظر إليه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت له بالعربية إنه لا يسأل عن مكان خان الخليلى. ولكنه يسأل إن كان مفتوحًا الآن.

سألها إن كان مفتوحًا؟

فقالت إنها لا تعرف.

قال للطيار الهندى إنه لا يعرف. فشكره ومال فى مقعده. وعاد يتحدث مع زميله.

قالت إنه يجب دائمًا توزيع نشرة على السياح تتضمن المعلومات المفيدة.

أراد أن يحكى لها نكتة. فقال إنه كان يجلس مرة فى محل إيزافيتش بميدان التحرير فمات أحد الزبائن على الرصيف بالسكتة القلبية، وتجمع الناس حوله وغطوه بالصحف فقال صاحب المحل اليوغسلافى بتأثر إن هذا مضر بالسياحة.

قطبت حاجبيها وفكرت قليلاً. ثم قالت إنها لا تحب سيرة الموت.

قال.. إنه آسف.

جاء الشاى. فوضع لها السكر فى الفنجان. وبدأ يصب الشاى. ولكنها لاحظت أن يده ترتعش.. فتناولت الإبريق وأكملت فنجانها بهدوء.. اتضح أن الجرسون نسى أن يحضر ملعقة. بدأ يفتش عن الجرسون بعينيه. ومر بجواره جرسون آخر، فناداه. قال الجرسون إنه ليس مسئولا عن خدمة هذه المنضدة ولكنه وعد بأن يتصرف.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

سألته عن الشىء المهم الذى يريد أن يحدثها عنه.

كان مازال يفتش عن الجرسون المسئول بعينيه. فقال إنه سيخبرها حالاً.

قالت إنها يجب ألا تتأخر لأنهم ينتظرونها فى البيت. وقالت إن الشاى أوشك أن يبرد ولم تحضر الملعقة، وقالت إنها مندهشة من الخدمة فى هذا المحل رغم أنه سياحى. أثنت على جروبى وقالت إنه يحافظ على مكانته رغم أنه مؤمم. قال إنه لم يدخل جروبى، فاندهشت.

قال إن الملعقة لابد أن تكون فى الطريق الآن، واستمر يحرك رقبته فى كل ناحية. فوجىء بالجرسون من خلفه يضع الملعقة فى الطبق وهو يعتذر.

دفع الهنديان الحساب ووقفا. وقالا لهما جود باى. هزا رأسيهما.

قالت إن الساعة أوشكت على السابعة. وإنها ستضطر أن تأخذ تاكسى إلى البيت. ثم بدأت تقلب الشاى، قال لها إنه ينتظرها من مدة طويلة. قالت إنها لم تكن تستطيع أن تأتى قبل ذلك. لأنها كانت مع أخيها فى بيت أسرة خطيبته. قالت إن أسرة خطيبة أخيها ناس جشعون. فقد أخذوا ألف جنيه فى المهر، لكنهم يقولون إن على أخيها أن يحضر النجف والسجاجيد أيضًا. وهذا فى رأيها ذبح. صحيح أن أخاها ضابط طبيب ومرتبه محترم، لكنه محتاج فى هذه الفترة أن يكوّن نفسه. بالإضافة إلى ذلك فهو يأتى من الجبهة فى إجازات قصيرة ولكن أهل خطيبته ينكدون عليه كل مرة برغم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ما يلى: يقدم فى كل مرة هدية محترمة لخطيبته، ويعطيها مبلغًا من المال لنفسها، ويؤكد أنه ليست له مطالب خاصة فى الجهاز أكثر من الحد المعقول. إنه يريد بيتًا يليق بمركزه فحسب ولو ضحوا نصف تضحيته لكان هذا كافيًا لقصر وليس لبيت. يجب فى رأيها أن يكف عن طيبته، وأن يواجههم بصراحة. ولولا أن خطيبته جميلة ومؤدبة لنصحته بأن يتركهم دون تردد، وأن يسترد المهر والشبكة. وقالت إن رأيها أيضًا أن من يأتى من الجبهة فى حاجة للراحة وليس لمناكفة أهل خطيبته.

ضحك. فسألته إن كانت مخطئة؟

فقال بالعكس. قال إنه شخصيًا لا يؤمن بالمهر والشبكة وغير ذلك.

بدأت ترشف الشاى فى صمت وهدوء. وراحت تتطلع للناس حولها.

حين تكلم التفتت نحوه وزوت حاجبيها.

قال إنه أحس أنه يجب أن يراها خارج المكتب لأنه لا يستطيع أن يحدثها هناك.

هزت رأسها. قال إن هناك أشياء كثيرة كان يود أن يقولها، وكان يتوقع أن تبقى معه فترة أطول، ولكنها تريد أن تنصرف بسرعة. قالت إنها آسفة ولكنها يجب بالفعل أن تعود للبيت.

بلع ريقه وسألها إن كانت تذكر ما قاله لها بالتليفون. فابتسمت وقالت إنها كانت تفضل ألا يذكرها بذلك. قالت إنها ستعتبرها هفوة

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

لسان أو لحظة طيش. سألها لماذا؟ فقالت إنها لا تحب الاندفاع وهما مجرد زميلين فى العمل. ولا يعرفان شيئًا عن بعضهما. قال إن هذا هو سبب تفكيره فى الموعد. وإنه يريد أن يلتقى بها ليعرفا بعضهما أكثر. قالت إن هذا غير ممكن. فهى تؤمن بالصداقة بين الجنسين ولا يهمها رأى الناس. ولكن البنت فى بلدنا مضطرة لأن تحمى سمعتها. سكت. فقالت إنها آسفة لأنها صدمته ولكن عيبها الوحيد هو أنها واقعية وصريحة. ثم نظرت فى ساعتها.

قال إنه يرجوها ألا تنصرف. قال إنه يحبها ويفكر فيها باستمرار. ولا يدرى ماذا يفعل. قالت وهى تميل للأمام وتمسك بحقيبتها على المنضدة إنها تعتبره بالفعل صديقًا حقيقيًا. وإنها آسفة لصراحتها. ثم وقفت ومدت له يدها والبلوفر الأصفر على ذراعها. قال لها أن تنتظر ليدفع الحساب ويخرج معها. قالت إنها تفضل أن تخرج وحدها حتى لا يراهما أحد ويسىء الظن.

وبينما كانت يدها فى يده، تمتم بأشياء غيرواضحة. لكنها انحنت وأشارت بيدها اليسرى خلفه وقالت إنها تحب السمك الملون حبًا شديدًا، وتشكره لأنه اختار هذا المكان. ثم قالت إنها ستراه فى المكتب فى الصباح.

هز يدها وقال إنه بالطبع سيأتى إلى المكتب فى الصباح. ظل يتابعها بنظره وهى فى طريقها للباب الزجاجى. ولكنه لاحظ أن الناس ينظرون له وهو واقف فجلس.

(١٩٧٠)

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

المظاهرة

طلبت إلى أمى فى الصباح أن أزور أخى الأكبر لأسأل عن زوجته المريضة، فقلت لها إننى لن أفعل وسألتها:

ـ هل سنأكل اليوم بطاطس أيضًا؟

على المائدة، فى الصالة، كانت البطاطس، والطماطم الحمراء وورقة اللحم (لابد أن البواب قد أتى بها جميعًا منذ لحظة وسرق ثلاثة قروش).

ـ ألا تحب البطاطس؟

ـ لا، لا أحبها.

ـ ولكنك تأكلها!

ـ آكلها ولكننى لا أحبها.

(تنهدت) ـ أنت لا تحب شيئًا.

ـ لا فائـدة من الكلام على أى حال.. لقد اشتريتها وانتهى الأمر.

ـ احترت. ماذا أفعل لأرضيك؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لا تفعلى شيئًا. فقط لا تطبخى بطاطس ولا تطلبى منى أن أزور أخى.

ـ لم يعد أحد يستطيع أن يكلمك.

ـ ولماذا؟ هل أنا مجنون لا تريدين أن تتكلمى معى؟

ـ لا أريد شجارًا جديدًا فى الصباح، توكل على الله واذهب إلى عملك.

ـ أجيبى على سؤالى.

ـ اشرب الشاى قبل أن يبرد.

ـ لن أشرب شيئًا.

ـ هل ستعود للغداء؟

ـ ولا للعشاء.

ـ ستجد أكلك جاهزًا على المائدة لو تأخرت فى الليل.

بالرغم من كل شىء فقد زرت أخى بعد خروجى من العمل بالشركة، وكان علّى أن أداعب أطفاله الثلاثة وأعطى نصائح غير مفهومة لزوجته التى كانت حاملاً فى شهرها السادس وشاحبة الوجه جدًا. قالت لى إنها تشعر أحيانًا بضعف وإغماء وأن هذا يرجع للحمل، ولشقاوة الأطفال، ولأن الخادمة لا يمكن الاعتماد عليها فى عمل البيت، ولأن الأطباء لا يفهمون، ولأن الأدوية لا فائدة منها ، ولأن الله هو الشافى. وافقتها على ما تقول وأضفت أيضًا أن غرفة النوم قبلية وأنها يجب أن تكون بحرية ليتجدد الهواء، كما يجب

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ألا تتعب نفسها، وأن تكثر من المشى، قالت إن المشى مفيد فعلاً ولكن الله وحده هو الذى يشفى، ثم ضربت ابنتها الكبرى، وهى فى الخامسة، لأنها أمسكت بكوب من الماء أمامى فشربت بعضه وصبت الباقى على فستانها. بكت البنت فأخذت أواسيها وأقبِّلها، وأمها تنظر إلينا غاضبة على ابنتها وراضية عن عواطفى نحوها.. أقبل أخى بعد فترة وسألنى عن أمى فأجبته باقتضاب. نظر إلى زوجته فخرجت، وساد الصمت ثم ثبت نظرته فىّ وقال بعد لحظة:

ـ ألم تغير رأيك فى موضوع الميراث؟

ـ أنا.. جئت لأسأل عن صحة ليلى.

ـ يعنى مازلت مصممًا على البيع؟

جاءت ابنته وجلست على ركبتى فأخذت أداعب شعرها والتزمت الصمت. كان شعرها جميلاً وناعمًا ولا رائحة له.

قال أخى: أنت تعلم أن البيت مرهون من أيام المرحوم والدك، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكنى أريد أن أبيع نصيبى، كل ما أريده منك هو الحجة والمستندات وسأدبر بيع نصيبى.

ـ كلام فارغ، ماذا تريد أن تفعل بالنقود على أى حال؟ أنت موظف ولديك مرتبك، هل ستتزوج؟

ـ سأتـزوج. سأسافر. سأشترى سيارة. سأشترى قطارًا.. أنا حر.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لا، لست حرًا فى أن تبدد عرق المرحوم فى كلام فارغ، هذه آخرة تدليل أمك: لن أوافق على البيع، لن أوافق ولتشرب من البحر.

فى المرة الماضية قلت له (هذه سرقة) ولكننى فى هذه المرة أنزلت الطفلة عن ركبتى وخرجت دون كلمة، وعندما وصلت إلى الباب قالت زوجته، التى كانت تسمع كلامنا من الغرفة المجاورة، إننى يجب أن أبقى للغداء ولكننى هززت رأسى وانصرفت.

كانت الساعة الثالثة والحر شديدًا، وليس هناك غير عدد قليل من الرجال يسيرون فى الطريق بقمصان مفتوحة بللها العرق، وبعض النساء يلبسن صنادل مربوطة إلى أصابع أقدامهن بخيوط رفيعة من الجلد ويقطبن وجوههن بسبب الشمس وليمنعن معاكسات الرجال. لم أكن أدرى ماذا أفعل فدخلت أول سينما صادفتنى فى الطريق. وعندما دخلت القاعة المظلمة كانت على الشاشة فتاة حسناء تمر بيدها على شعرها بإعجاب وتدير وجهها ببطء والمذيع يقول إن جمال شعرها سببه شىء لم أنتبه إليه تمامًا، ولكننى سمعت أنه يباع بكل الصيدليات. أخذت أبحث فى جيبى عن قرش أعطيه للعامل الذى قال لى بمجرد أن أستلم التذكرة (ميرسى) بطريقة عادية وملحة للغاية. وعندما جلست على مقعدى نظرت إلىّ جارتى نظرة جانبية معادية وثبتت ذراعها على المسند المشترك بيننا خشية أن أنفرد به، وانزويت فى مقعدى، وابتعدت عنها بقدر الإمكان، ركزت نظرى على الشاشة وكان هناك إعلان عن الفيلم القادم «المصارع الوحشى».. مدهش، مذهل، مرعب، مثير. وبعد ذلك أضيئت الأنوار مصحوبة بحركة فى المقاعد وسعال خفيف.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

نظرت إلى جارتى فالتقت عينانا فى نفس اللحظة فى نظرة فاترة، ولكنها فاحصة. كانت فى حوالى الأربعين، جميلة، لها عينان زرقاوان واسعتان وتمسك بيدها سيجارة، أخرجت من حقيبة يدها «ولاعة» ملونة غريبة الشكل وأشعلت السيجارة، ولاحظت عندئذ لأول مرة أن الصف الذى أجلس فيه كله من الرجال وأن عيونهم جميعًا تراقب حركاتها مثلما أراقبها بنظرة بليدة، ملحة، توشك أن تكون ناقمة.

أطفئت الأنوار وبدأ الفيلم، كان مسليًا فى أول الأمر، فرقة جنود محاصرة والقائد يرفض أن يستسلم، ثم بدأ القائد يتذكر حياته وأول مرة قابل فيها زوجته: على البحر.. وحدث عندئذ وأنا أعدل من وضعى على المقعد أن اصطدمت ساقى بساق جارتى عرضًا فلم تبد أى حركة، وأبقيت ساقى كما هى. أردت أن أتأكد، فلامست بذراعى ذراعها المرتكزة على المسند دون أن أنظر نحوها ـ لمسة رقيقة للغاية ـ هكذا. لم تبعد ذراعيها أيضًا، مددت يدى نحو يدها ببطء فقبضت فجأة على أصابعى التى بللها العرق، قبضة متشنجة ـ وكان القائد عندئذ يقبل حبيبته ـ ظللنا هكذا لفترة دون أن ننظر إلى بعضنا: ساقى تلاصق ساقها وكتفى مغروس فى كتفها ويدها تحتضن يدى بقوة وأنا أشعر بقربها، وأشعر بلحمها، وأشعر بالعرق وأفكر بسرعة: أين يمكن أن نذهب؟ أين؟ ثم حسمت الأمر: سآخذها إلى شقة حسن.

انتبهت عندئذ إلى أن القائد كان وسط جنوده مرة أخرى وكان يصدر أوامر، فانسلخت عن جارتى وأخرجت علبة سجائرى وقدمت لها سيجارة.. أخذت السيجارة وهى تنظر إلى نظرة طويلة وأحسست

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بلمعة عينيها فى الضوء الخافت، أخذت أبحث فى جيوبى عن الكبريت فلم أجده فأخرجت هى ولاعتها وأشعلت سيجارتها ثم سيجارتى. ويبدو أن هذه هى الحركة التى لفتت إلينا الأنظار، فعندما عدت أضع يدى على كتفها وأتسلل بها سمعت من يقول فجأة وبصوت عال:

ـ أنا احترت. هل هذا فيلم حربى أم غرامى؟ فانفجرت الضحكات.

وقال الجالس بجانبى وهو ينحنى بجسده بشدة ليحملق فينا ويجيب الآخر:

ـ هذا فيلم جنسى، ممنوع لأقل من خمسين سنة.

سحبت يدى بسرعة وانفجرت الضحكات والتعليقات، وأوامر القائد، وطلقات الرصاص، وصرخات الجنود. وركزت عينى على الشاشة متظاهرًا بأننى لم أفهم، وأن الأمر لا يعنينى وأننى هادئ، وأن ما يحدث على الشاشة مهم جدًا. هدأ كل شىء بعد لحظة، الضحكات والرصاص، وكان وجه القائد ملوثًا بالطين، ولاحظت عندئذ أن جارتى ترتجف بشدة وأنها تتنفس بصعوبة وقد وضعت منديلها على فمها. وهمست فى أذنها:

«فلنخرج».. وقمت بسرعة وأنا أمسك بذراعها وأحرص على ألا أسمع شيئًا مما يقال.. وعندما انتهينا إلى صالة السينما الخارجية الخالية ارتكزت على الحائط وتفجرت دموعها الغزيرة دون أن يصدر عنها أى صوت، وقفت لا أدرى ماذا أفعل وأنا أراقب من ورائها لوحة ملونة لرجل عارى الصدر يمسك حربة: كانت إعلانًا عن «المصارع

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

الوحشى» قلت لها بصوت خافت:

ـ يكفى هذا. عامل السينما يراقبنا.

ـ لا أستطيع.. لا أستطيع.

كان صوتها متهدجًا، وعيناها محمرتين تمامًا وتقف متهالكة.

ـ لا تهتمى لشىء.. ما أهمية ما حدث؟

ـ خمسين سنة قال.. هل سمعته.. هل.. هل.. أنا فى الخمسين؟

أوشكت أن أضحك ولكننى قلت: بالطبع لا.

كانت لهجتها وتعبير وجهها يثيران الرثاء فقلت لها:

ـ لِمَ تهتمين؟ ألا تعلمين كم أنت جميلة؟

شهقت شهقة متقطعة وهى تمسح دموعها وقالت:

ـ عندما كنت فى باريس كان الناس يقبلون بعضهم فى الشوارع، ولم يكن أحد يهتم.

ـ بالطبع، بالطبع، هيا بنا نخرج.

سرناصامتين فى الطريق، كان الحر لا يزال شديدًا وكان الناس قد بدأوا يخرجون ويقفون أمام واجهات المحلات ورأيت أمام أحد المقاهى التى نثرت مقاعدها على الطريق امرأة ترتدى قميصًا رجاليًا وسروالاً مهلهلا تقف وقد باعدت بين ساقيها وثنت رأسها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

للخلف، وهى تمسك بيدها شعلة من النار تضعها فى فمها وتزفر لهبًا، وعندما اقتربت منها شممت رائحة الجاز، وكان الجالسون فى المقهى لا ينظرون إليها بل يحدقون فى الفراغ وهم يسندون أذرعهم على الموائد.

دست صاحبتى يدها فى ذراعى وتعلقت به، وكنت أسمعها بين الوقت والآخر تتنفس نفسًا طويلاً متقطعًا من أثر البكاء.

سألتها:

ـ هل قلت لى إنك ذهبت إلى باريس؟

ـ نعم، لقد عشت هناك. كنت أدرس.

ـ وماذا كنت تدرسين؟

ـ الرسم.

ـ أنت مدرسة رسم؟

ـ لا.

ـ وماذا تعملين إذن؟

ـ لا أعمل شيئًا. لقد تزوجت.

ـ وهل...

ـ اسمع.. تعال ندخل هنا، سأدعوك إلى فنجان شاى.

دفعت الباب الزجاجى فأصبحنا فى قلب مشرب الشاى، حيث أصوات الملاعق وحيث الضحكات، والمقاعد الحمراء وجدنا

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

لأنفسنا مكانًا فى الزحام ومن حولنا كـان يجلـس الرجال فى جماعات ينظرون إلى النساء اللائى يجلسن وحدهن أو مع رجال آخرين وهم يتكلمون ويضحكون بصوت عال ليلفتـوا إليهـم الأنظار أما الفتيات الصغيرات فكن يجلسن سويًا يدخن السجاير ويحتمين بالنظر إلى بعضهن كى لا تلتقى عيونهن بعيون الرجال.

قالت صاحبتى بعد أن جلسنا وطلبنا الشاى:

ـ سأعود بعد دقيقة واحدة.

تابعتها ببصرى وهى تشق طريقها وسط الموائد. وكان واضحًا أنها تألف المكان وكانت مشيتها واثقة وثوبها أنيقًا وتبدو من ظهرها امرأة جميلة فى الثلاثين ـ وعندما عادت كان شعرها مرتبًا وكانت قد أصلحت زينتها، جلست وهى تبتسم فبدت فى وجنتيها غمازتان وبدا وجهها منورًا وجميلاً كفتاة فى العشرين.

ـ أنت جميلة عندما تبتسمين، لا تقطبى أبدًا.

ـ انصح نفسك، أنت لم تبتسم ولا حتى ابتسامة صغيرة.

بادلتها الابتسام وأنا أشعر نحوها بحنان غريب وأحب عينيها الزرقاوين.

ـ لماذا أنت حزين؟

ـ وكيف عرفت أنى حزين؟

ـ من وجهك، من عينيك، كأن فيهما دمعة دائمة لا تنزل.

ـ وهل أنت سعيدة؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لا تسألنى بل أجبنى، لماذا أنت حزين؟

فكرت قليلاً:

ـ بسبب الحر.

ضحكت وبدت عيناها الزرقاوان أشد التماعًا وقالت:

ـ هذا سبب وجيه.

ـ لماذا؟

ـ فى الحر يشعر الإنسان بالاختناق.

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ ولماذا تشعر بالاختناق (ثم أضافت بسرعة قبل أن أفتح فمى) أعنى حقيقة.. لا تكلمنى عن الحر.

ـ لا أدرى.

أحنت رأسها وقالت بحزن غريب:

ـ أنت لا تثق بى.

(عجبت؛ ولماذا يجب أن أثق بها؟).

ـ أريد أن أعرف الحقيقة، أريد أن أعرفك، لا أحد أعرفه يكلمنى عن شىء حقيقى.. لم أعد أعرف أحدًا.

ـ حتى ولا زوجك؟

ـ وبالأخص زوجى.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ ألا تحبينه؟

ـ لا.

ـ ولِمَ تزوجته؟

ـ كنت أحبه. وأنت ألا تحب؟

ـ لا.

ـ ولكنك صغير، كم عمرك؟ عشرون سنة؟

ـ خمس وعشرون.

ـ هذه هى السن التى يحب فيها الناس.. كيف حدث أنك لا تحب؟

ـ وما معنى الحب؟

ـ أن يكون لواحدة معنى عندك، يحدث هذا أحيانًا من أول لقاء، ألم تشعر بذلك أبدًا؟

كان على أن أجيب: «لقد بدأت أعرف ذلك».. ولكنى قلت:

ـ وإلى أين ينتهى ذلك؟ كل بنت عرفتها لم تكن تبالى بأن تجد معنى ولا بأن تحب، بل بالزواج قبل كل شىء وأنا لا أريد أن أتزوج. لا أريد أن أفعل كما فعل أبى: أن أفتح بيتًا وأنجب أطفالاً وأتشاجر مع زوجتى بسبب الأطفال وأربى الأطفال ويكبر الأطفال وأتشاجر معهم ويتشاجرون مع أمهم ويتشاجرون مع بعضهم ثم.. ثم أموت أنا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ولكن أليست هذه هى الحياة؟

ـ أنا لا أريد هذه الحياة. (كان وجهها قريبًا منى ولكن صوتها كان يأتينى من بعيد) تراودنى دائمًا ذكرى أبى، عندما كنت تلميذًا كنت أسهر لأذاكر وكان أبى يعود متأخرًا للبيت.. يعود مخمورًا ويدخل إلى غرفتى فيحيينى ويجلس صامتًا قبالتى. لم يكن يترنح، ولم يكن يتشاجر، بل لم يكن يتكلم مطلقًا: يجلس صامتًا، عيناه محمرتان، وبذلته داكنة، ووجهه حزين ومنكس فى الأرض، وأنا أنظر إليه ـ أحبه ولكننى لا أستطيع أن أقول شيئًا.

ـ يعود زوجى مخمورًا كل ليلة ولا يحيينى تحية المساء.

ـ لم يكن أحد يهتم به، أخى الأكبر كان يريد منه نقودًا ليفتح مكتب المحاماة، وأخواتى البنات كن يردن منه نقودًا ليعطين أزواجهن. وأمى كانت تريد منه نقودًا لتعطى ابنها ولتعطى بناتها ولكن لم يكن أحد يهتم به. كانوا كلهم غاضبين عليه لأنه لم يكن يستطيع أن يعطى كل واحد ما يكفيه.

ـ زوجى غاضب علىّ لأننى لا أستطيع أن أعطيه ابنا.

ـ أنجب أبى أبناء ولكن أحدًا لم يهتم به، وعندما مات لم يكن عجوزًا.

ـ زوجى غاضب علىّ لأنه صار عجوزًا ولم أعطه ابنًا. عندما تزوجته قلت له «لا أستطيع أن أنجب لك، هكذا قال الطبيب» فقال لى «أنت طفلتى، وستظلين دائمًا طفلتى ولن نحتاج أطفالاً» ثم قبل دموعى وأخذ يدللنى كطفلة حتى ضحكت، والآن يعود مخمورًا كل ليلة ولا يحيينى تحية المساء.

تنسيق: علامة تعجب
www.ibtesama.com

ـ ما معنى ذلك؟ ما معنى أى شىء؟ لقد مات أبى فما معنى حياته؟ ما معنى حياتى؟ فى كل صباح أذهب إلى عملى فى الشركة فأعمل الشىء نفسه ـ أدفن أوراقًا فى ملفات وأبوِّب الملفات ولا أحد يسأل يومًا عن هذه الملفات.. فى العمل فى البيت، مع أصدقائى يحدث نفس...

(تنهدت) ـ أنت تفهمنى تمامًا.

ـ نعم؟

ـ أقول لك أنت تفهمنى تمامًا، زوجى لا يفهمنى ولا أحد يفهمنى ولكن أنت تفهمنى تمامًا.

ـ ولكن.. ما الذى جعلك تقولين هذا؟

ـ منذ رأيتك فى السينما أحسست أننا سنكون صديقين، والآن تأكدت.. أنت الوحيد الذى يفهمنى.

كانت تتكلم ببساطة وارتياح وكأنها قد عثرت على شىء مفقود يخصها.. وأوشكت أن أصرخ: «أنا لا أعرف اسمك» ـ ولكن عينيها كانتا تلمعان من جديد وقالت وهى تضغط على كلماتها:

ـ مسألة إحساس!

ـ إحساس بماذا؟

ـ بأن كلينا يفهم الآخر، أنت حزين لأن أباك مات وأنا...

ـ ولكن أبى مات منذ عشر سنين!

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لا يهم، ولكن هذه هى العقدة الحقيقية، أنا درست علم النفس، وأعرف. سوف أساعدك على التخلص من هذه العقدة.

ـ أى عقدة؟

ـ .. وسوف أرسم لك لوحة، سأسميها «الحزن».

ـ اسمعى، انتظرينى دقيقة واحدة، سأشترى سجاير وأعود فى الحال.

ـ ولكن.. انتظر...

كنت فى الشارع، أسير بسرعة وأصطدم بالناس وأندم لأنى كلمت تلك المرأة، ولكن ماذا كنت أنتظر؟ لِمَ فعلت ذلك؟ لِمَ لم آخذها إلى شقة حسن فننتهى دون حاجة إلى كلام؟ ألم يكن ذلك أفضل؟.. لِمَ لا أبكى؟.. أرتكز على هذا الحائط وأبكى؟.. وما الفائدة؟.. هل سأجن كما تقول أمى؟.. وماذا يحدث لو جننت؟ لن أضطر لأن أكلم أحدًا أو أستمع إلى أحد. لن أمشط شعرى كل صباح أمام المرآة وأكره نفسى.. لن أضطر لأن أفعل أى شىء.. الكلب!.. ماذا لو أعطانى ميراثى؟

ولكن.. ماذا لو أعطانى ميراثى؟ ماذا سأفعل؟ سأستقيل من العمل وأذهب كل أسبوع إلى مكان. وماذا بعد ذلك؟ ماذا لو سئمت السفر؟ ماذا وأنا أسأم السفر؟ ماذا سأفعل؟ سأسير فى الشارع، وسيسلمنى كل شارع إلى آخر.

انتبهت على شىء غريب يحدث فى نهاية الطريق، لم أتبينه أول الأمر، كان هناك زحام وضجة وموسيقى وأناس يحملون نعشًا غريبًا،

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

وكان الواقفون على الرصيف يبتسمون فى سعادة، وهم ينظرون نحو الزحام وبعضهم يعدو ليلحق به. استوقفت واحدًا وسألته:

ـ ما الخبر؟

فقال متهلل الوجه: أخذنا الكأس، خمسة أهداف لواحد تصور خمسة لواحد!

قال ذلك ثم تركنى وجرى فعدوت لألحق به وأتفرج.. كانت مظاهرة غريبة.. فى مقدمتها كانوا يحملون نعشًا أجلسوا فيه دمية خشبية تلبس (فانلة) بلون فانلة الفريق المهزوم، وأخذ البعض حول النعش يقلدون صراخ النسوة ويتلوون بحركات مبالغ فيها وهم يلوحون بالمناديل، ومن خلفهم كانت جماعة أخرى تحمل رجلاً ممزق القميص أخذ يلوح بيده متشنجًا ويقول «خمسة» فيردون عليه معًا «لواحد» ثم يقول «والخيبة» فيردون «بالويبة». كانوا منفعلين جدًا ووجوههم حمراء متقلصة يغطيها العرق والتراب. ومن خلف هؤلاء كان رجل يمسك عصا ويرقص على أنغام المزمار البلدى والرق.. كان وجهه محتقنًا وهو يزم شفتيه ويقطب جبينه ويمسك بالعصا ساكنًا متصلبًا ثم يهز جذعه هزة مفاجئة ولكنها طفيفة ويظل ساكنًا حوالى دقيقة وعازف المزمار يعزف لحنًا خافتًا مرتبكًا حتى يهز جذعه وعصاه مرة أخرى ثم يعود للتقطيب، وشاع الملل والفتور من حوله وانصرف الناس للرجل الذى يهتف حتى لم يبق غير العازفين وعدد قليل، ولكنه لم يبال: كان يهز جذعه كل دقيقة مرة. أما الأطفال الصغار والصبية فكانوا يجرون حول المظاهرة ويهللون وهم يلبسون جلابيب وبنطلونات قصيرة عفرها التراب، بينما أمسك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بعضهم بقطع من الطباشير وحملوا طلاء وراحوا يكتبون على الأرض، ويندفعون نحو كل حائط يرونه ليكتبوا بخط متعرج (خمسة لواحد) «٥ ـ ١» .. «٥ ـ ١».

وبينما كنت أتابع المظاهرة وأنا أسير على الرصيف هجم على رجل قصير يرتدى قميصًا أزرق وأمسكنى من ذراعى وهو يقول متنمرًا:

ـ ألست معنا؟

ـ بالطبع أنا معكم. (ولم أكن فى حياتى قد شاهدت مباراة).

قال فى شك: لا يبدو عليك الحماس.

ـ بل أنا متحمس.. خمسة لواحد؛ تصور!

بدأ الحماس يجرفنى بالفعل فجذبته من يده واندسست وسط المظاهرة. صرت أصفق للرجل الذى يهتف وأحمل النعش وأنا مسرور أضرب الناس على ظهورهم ويضربوننى على ظهرى وأترك نفسى فى الزحام يدفعوننى حيث شاءوا ووجدت نفسى مرة أخرى إلى جوار الرجل القصير الذى قال لى وهو يرفع يده على كتفى ويلوح بالأخرى فى سعادة:

ـ لقد قتلناهم، لقد...(قال إننا فعلنا بهم شيئًا بذيئًا جدًا).

فقلت له بحماس: نعم، لقد...

قال: لن يلعبوها بعد اليوم.

فقلت: كيف يجدون الشجاعة؟ لقد انتهوا تمامًا.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ أولاد الـ... كانوا يحلمون بالكأس.

ـ هاها.. أبعد عليهم من القمر.

أبطأت حركة المظاهرة شيئًا ما، وخفتت الهتافات قليلاً، ثم عادت تدوى أعلى من أى وقت مضى، وعلا الصراخ والنحيب الكاذب بوجه خاص، وقال صاحبى وهو يشب على قدميه ويحاول أن يطل برأسه من خلال أكتاف الواقفين أمامنا:

ـ هذا مقهاهم. لابد أنهم الآن فى مأتم.

دفعت الواقفين أمامى بكتفى وذراعى حتى وصلت إلى المقدمة، كنا نقترب من المقهى الكبير الذى ساده السكون ووقف ببابه بعض الرجال العابسين، وقد شبكوا أذرعهم على صدورهم وراحوا يتظاهرون بعدم الاكتراث.. ولكن عندما توقفت المظاهرة أمام المقهى، وسادها الصمت العميق وسكت حتى الرجل الذى يرقص ليصرخ واحد وهو يضع منديلاً وراء رقبته صرخة طويلة ساخرة، عندئذ اندفع الرجال الواقفون بالباب وهم يشتمون، ويلوحون، ثم تلاهم آخرون من داخل المقهى وبدأت المعركة. تحطم زجاج، ورفعت مقاعد فى الهواء وظهرت عصى غليظة وعلت صرخات وكان رجل مجروح فى جبهته يمسك برقبتى وأنا أضربه فى بطنه ضربات سريعة متتالية وهو ينظر إلىّ فى كراهية وأنا أريد أن أشتمه ولكن صوتى لا يخرج وتشتد قبضته على رقبتى فأثنى ساقى وأضربه بركبتى ضربة عنيفة بين فخذيه فيصرخ ويتركنى وهو يترنح وقد أحنى ظهره وأخذ يتأوه فى ألم وأنا ألاحقه وأضربه بقبضتى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

معًا فى ظهره بكل قوتى بينما يسقط شىء ثقيل على رأسى ولا أعود أرى شيئًا.

فتحت عينى مرة أخرى على وجه رجل يسند رأسى بيده ويمسك قطنًا أبيض ولكننى أحسست بألم هائل فى رأسى فصرخت وفقدت وعيى من جديد. وعندما أفقت مرة أخرى كانت رائحة «النشادر» النفاذة تملأ جوفى كله فأخذت أتنفس من فمى بينما يسندنى جنديان من ذراعى ليضعانى فى سيارة كبيرة تمتلئ بالرجال الذين ربطت رءوسهم وأذرعهم بالشاش الأبيض، وعندما جلست متعبًا وضع واحد يده على كتفى وقال:

ـ ولا يهمك؛ غرامة بسيطة ثم تخرج من الحجز.

ضحك البعض وهم يتظاهرون بالشجاعة بينما ظل معظم من فى العربة صامتين وهمس الجالس بجوارى فى أذنى:

ـ هل نبيت الليلة فى الحجز؟

نظرت نحوه مجهدًا، كان الرجل القصير وقد تلوث قميصه الأزرق بالدم فقلت له بصوت خافت:

ـ ربما.

قال وهو يقرض أظافره: ولكن ماذا يحدث لو بتنا الليلة فى الحجز؟.. عندى عمل فى المطبعة بالليل، ماذا يحدث؟

(ستعد أمى العشاء وتتركه على المائدة وتغطيه ولكننى لن أكون هناك لآكله).

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

عاد الرجل القصير يهمس فى اكتئاب: لا أدرى لِمَ أحب الكرة، الله يلعنها ماذا يحدث لو بتنا فى الحجز؟

قلت له: لا تحزن، لا تهتم.

فقال: ولكن ماذا يحدث لو بتنا؟

قلت له نافد الصبر: لن يحدث شىء لو بتنا الليلة فى الحجز.. اسكت.

سكت الرجل أخيرًا، وسكتت كل الأصوات فى العربة، فتنهدت بارتياح وأنا أسند رأسى المجروح فى حذر إلى ظهر العربة لا أفكر فى شىء، ولا أستمع إلى شىء غير صوت إطارات العربة الرتيب وهى تدرج على أسفلت الطريق.

(١٩٦٦)

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

المطر فجأة

تنسيق: علامة تعجب
www.ibtesama.com

وهما يسيران فى شارع قصر النيل قالت سميرة وهى تضحك: لو كانت لى قصة حب لحكيتها لك. صدقنى.

فقال مدحت: أنت تكذبين (ورفض أن يعطى قرشًا لشحاذ أعرج يحجل وراءه).

قالت سميرة: سوف أغضب.

فقال مدحت: ولكن معك حق. أنت لم تحبى أبدًا.

وقفت أمام الفاترينة.. «أسبوع الفضلات».. «أذواق».. قطعة قماش بنية مرقشة.. على الزجاج وجهه ووجهها.

قال: أنا آسف.

فقالت: أنت لا تصدقنى أبدًا.. أريد أن أشترى شيئًا لماما لعيد الأم.

ـ قماش؟

ـ لا، شنطة.

همس: أحبك، ماذا أفعل؟

قالت: ماذا تقول؟ ارفع صوتك. لا أسمع شيئًا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لاشيء. نمشي.

إشارة المرور.. رجل يحملق فيها وجهه حزين.. تتشبث بذراع مدحت ثم تتركه.. واحد بجوارها يقول: «المرأة مكانها الطبيعي البيت» فيرد صاحبه: «والرجل أيضًا»..

يضحكان.. الإشارة خضراء من جديد.. الناس من الرصيف المقابل يهجمون ووجوههم مقطبة.

قال مدحت فجأة: ما رأيك، نسافر إلى الإسكندرية؟.. أحب البحر.

فقالت: متى؟

ـ الآن.

ـ وشغلك؟

ـ لا يهم.

ـ وماما؟

ـ لا يهم.

ـ مجنون.

بوليس النجدة.. الناس يمشون على الرصيف ورءوسهم ملوية، ينظرون للصفارة.

قالت: أنا أحب الصحراء. أحب أن أسكن فى الهرم. أكره الزحام.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ياربى كم أكره الزحام.. فى الصباح والناس يخنقوننى فى الأتوبيس أتمنى أن أموت. ما رأيك فى هذه الشنطة، تنفع لماما؟

ـ شباب، شباب أكثر من اللازم.

ـ ماما ليست عجوزًا. عندما تمشى معى فى الشارع يظنها الناس أختى الكبيرة.

ـ يا للسعادة.

ـ ماذا تقول؟ لماذا لا ترفع صوتك؟

ـ اشتريها.. أقول اشتريها، اشتريها، اشتريها.

ـ لا، غالية جدًا. ولا تصرخ هكذا.

فى ميدان التحرير سألها: ما هو الحب؟

قلبت عينيها فى السماء وقالت: فى الأغانى والأفلام. أتظن أنها سوف تمطر؟

كانت السماء مزدحمة بقطع صغيرة مدورة من السحاب الداكن، أطرافها رقيقة وشفافة تسبح فى السماء بسرعة ثم تتلاشى كالدخان.

قال: لا، لن تمطر.

ـ أنا أظن أنها سوف تمطر.

ـ ربما، ولكن اسمعى.. أنا أحبك، ماذا أفعل؟

ـ لاداعى لهذا الكلام.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ولكن لماذا؟

ـ لاداعى له. سوف أغضب.

سارا صامتين، وعند كوبرى قصر النيل كان الأسد عابسًا وعلى لبدته مخلفات العصافير، بيضاء كالجير، وعلى عينيه أيضًا، سارا على الكوبرى، صامتين.

قالت له بعد فترة: لِمَ لا نكون كالإخوة؟

ضحك وأشعل سيجارة.

قالت: أنت أخى وأنا أختك.

ضحك أيضًا فقالت: ما الذى يضحك؟

ثم بدأ الرذاذ فقالت: قلت لك إنها سوف تمطر.

قال: نعم (ألقى بالسيجارة المبتلة فى النهر).

ـ لم ترد أن تصدقنى وها هى قد بدأت تمطر.

ـ نعم.

أنا قلت ذلك.

ـ نعم أنت قلت إنها سوف تمطر وأنا قلت لن تمطر وقد بدأت تمطر. ماذا أفعل بالضبط؟ أرمى نفسى فى البحر؟

ـ أبدًا، تسمع كلامى بعد الآن.

ـ أصبح أخاك؟

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ بل نمشى بسرعة.. سيشتد المطر.

ـ أنا أيضًا لا أحبك.

ـ نعم.

ـ كنت.. كنت أريد أن أحبك، ولكن...

ـ لا يهم، لا داعى لهذا الكلام الآن. أسرع.

عندما وصلا إلى باب الكازينو كانت تلهث وقطرات الرذاذ على خديها وحاجبيها وخصلة من شعرها المبتل قد التصقت بخدها الأسمر فمد يده ومسح الرذاذ ولكنها ابتعدت بسرعة وقالت: شكرًا، معى منديل.

جلسا تحت المظلة فى الكازينو وكانت قطرات المطر الصغيرة تسقط على النهر فترتجف الأمواج الرمادية بسرعة واستمرار.

قالت: أكره الرذاذ. يا ربى.. لو أمطرت بشدة لانتهينا بسرعة ولكن هذا الرذاذ...

رفع عينيه إلى الكوبرى فرأى الناس يمشون مسرعين وقد مالوا بجذعهم إلى الأمام وفردوا الصحف فوق رءوسهم. وكان الرذاذ يبدو خطوطًا شفافة مائلة تملأ العالم.

قال: نعم، سوف يستمر للأبد.

ـ ما هو؟

ـ الرذاذ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ وماذا تقصد؟

ـ لا شيء.

مرقت بسرعة قطة سوداء مبتلة، وتحت المنضدة المجاورة نفضت نفسها ثم جلست بهدوء واحتضنت جسمها الأسود اللامع بذيلها الكبير ثم راحت تتطلع إليه بعينين خضراوين مستفهمتين.

(١٩٦٦)

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

كومبارس من زماننا

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

١ ـ مجرد أمثلة:

لا يعرف أحد من هو مالك هذه العمارة بالضبط، فصاحبها الأصلى رجل فوق الستين وإن كان يبدو أصغر من ذلك بكثير.. تاجر (خردة) أو (حدايد مستعملة) كما يكتب على الإيصالات وعلى مكتبه أسفل العمارة، ولكن مطلقته الشابة (التى تشاهد معه كثيرًا رغم الطلاق) تدعى أن العمارة باسمها. وقيل إن سبب اللبس أنه كتبها باسم طفلهما الصغير، وقيل إن أبناءه من زيجات سابقة ينازعون فى ذلك أمام المحاكم، وهم يبعثون للسكان بين الحين والآخر بإنذارات قانونية مطبوعة بضرورة دفع الإيجار فى المحكمة. لكن السكان فى جميع الأحوال كانوا يدفعون للبواب ويتسلمون الإيصالات دون أن يهتموا بمتابعة الخلافات القضائية بين الملاك.

كان هناك ما يكفى السكان من المشاغل. فكل المتاعب المتناثرة فى العمارات المشابهة توجد هنا مكثفة ومركزة. المياه تنقطع باستمرار لأن موتور الخزان الذى فى أعلى العمارة يتعطل دائمًا.. الأسانسير لا يعمل إلا نادرًا (والعمارة بالمناسبة من اثنى عشر دورًا).. السلالم قذرة على مدار العام، ونور السلم لا وجود له.. إلخ. وقد تعددت الحوادث فى العمارة بسبب ذلك: تزحلق

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كثيرون على السلم وأصيبوا، وخرج البعض إلى أعمالهم وأجزاء من ذقونهم محلوقة وأجزاء أخرى نامية الشعر تجمدت فيها بقايا الصابون، وأصيب عريس فى الدور الحادى عشر بهبوط فى القلب ونسب ذلك إلى أن الأسانسير ظل متعطلاً ثلاثة أشهر كاملة، وغير هذا كثير.

كان طبيعيًا إذن أن تكثر شكاوى السكان لقسم البوليس وللجهات المختصة، ولكن هذا لم يكن صحيحًا، فبرغم كل الخلافات العائلية كان المتنازعون على العمارة يقفون جبهة واحدة أمام السكان، يتزعمهم المالك الأصلى الذى كانت له طريقة فريدة فى الحديث وفى التعامل. أولا يلتقى بالساكن المشاغب ويقول له ـ مثلاً ـ كما قال لى بلهجة سريعة جدًا يصعب أن تتابع معها تسلسل أفكاره:

ـ انظر.. أنت معك حق.. ومن ينكر؟.. من يتحمل أن يبقى فى عمارة بلا ماء؟ قال سبحانه: وجعلنا من الماء كل شىء حى. أحكى لك حكاية.. زوجتى الثانية ـ يرحمها الله ـ كانت تشكو من إمساك غريب ولم نترك مستوصفًا أو حكيمًا. أقسم لك حدث هذا ذات مرة: ظلت عشرة أيام دون أن تعمل أى مجلس. لا تؤاخذنى أنا رجل غير متعلم. من أيام الكلمتين فى كُتّاب البلد لم أتعلم شيئًا. لا تؤاخذنى. هل تعرف كيف صرف ربنا عنها؟.. لن تصدق. أيامها كنت أعمل فى مخازن شركة الترام، وكان لى صديق كمسارى، ابن حلال، أيام أن كان الترام يمشى فى شارع فؤاد.طبعًا أنت لا تذكر هذه الأيام. الجيل الجديد ياعم. يا بختكم. تليفزيونات وميكروباسات وفساتين عريانة وأستغفر الله. ماذا قال الكمسارى؟..

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

قال تشرب كوبين من الماء على غيار الريق.. أى والله: ماء لا غير. وبعون الله صرف ربنا عنها. لكنها ماتت بعد ذلك. أعمار يا سيدى. نتدخل فى حكمته؟.. كلنا سنموت. ماذا كنت أقول؟.. الدنيا كلام فارغ. لا تستحق أن نختلف مع بعضنا. هل أعرف أنا أو تعرف أنت ماذا يمكن أن يحدث لنا غدًا.. لا.. بل بعد ساعة واحدة؟.. أبدًا.. عن نفسى أنا هدّنى السكر ولم أعد أجد للدنيا طعمًا. نحمده على كل حال، الأفندى جارك المهندس الزراعى كان لا يرمى حتى السلام إذا رآنى.. لماذا يا ابن آدم؟.. ماذا ستأخذ من الدنيا غير الكلمة الحلوة؟.. أقول لك أصبحنا صديقين جدًا بعد أن زرته فى المستشفى حين وضعوا رجله فى الجبس. مسكين. كلنا مساكين. والله لو فهمنا لقصرنا الشر وتعاملنا بالكلمة الحلوة. كل شىء فى الدنيا تحله الكلمة الحلوة.

وبالطبع فهمت أنا الرسالة التى ضمنها هذا الحديث الطويل والإشارة للمهندس الزراعى. كنت مثل جميع السكان أعرف أسلوبه الموجز فى التعامل مع أصحاب الشكاوى. أمام باب الشقة بالضبط ينتظر الساكن حوالى عشرة من العمالقة مسلحين بالعصى يضربونه ببراعة تامة هو ومن يجسر أن يطل برأسه من باب شقته. وفى قسم البوليس كان يستحيل على المضروب أن يقول إنه يعرف من ضربوه أو أن يثبت أن صاحب العمارة هو الذى سلطهم عليه. وبالتدريج تعلم السكان ألا يلجأوا للقسم، الذى قالوا ـ من يأسهم وعجزهم ـ أن صاحب العمارة واصل إليه بطرقه الخاصة، وأن هذا هو السبب فى أن كل الشكاوى ضده تطبخ هناك وأنه يطلع منها كالشعرة من العجين.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

٢ـ ما حكاه لى المهندس الزراعى فى شقته بعد أن شرب أربع زجاجات من البيرة:

تقول كل التفاصيل؟.. كلها؟.. سأحاول. بدأت المسألة بحكاية تافهة جدًا. أنت تعرف أننى أمثل أحيانًا فى التليفزيون فى أدوار صغيرة. عدت مرة فى الثانية صباحًا، وكان الجو باردًا. أراد المخرج ـ الله يخرب بيته ـ أن يعمل بروفة فى هذا الوقت الشاذ. لم يكن هناك أى داع لوجودى والله، لكنه أصر على حضور الممثلين جميعًا. كان كل دورى أن أمر أمام البطل وهو يجلس مخمورًا على المائدة فأنظر إليه باحتقار وأمصمص شفتى وأنا أهز رأسى لليمين والشمال. تحتاج إلى بروفة؟.. خمس ثوان على الشاشة والله. جعلنى أعيدها عشرين مرة. ربنا ينتقم منه. لم تعجبه طريقتى فى المصمصة. عندما كنت فى فريق التمثيل بالكلية كنت أحلم أننى سأمثل ذات يوم أدوار شكرى سرحان وأهز الدنيا. مضت خمس سنوات وأنا مقيد فى التليفزيون باسم كومبارس صامت. هذا ما أخذناه من الفن. أحارب الآن لأصبح كومبارس متكلمًا. وعدنى مخرج ابن حلال أن يتوسط لذلك. عدت فى الثانية صباحًا كما قلت لك وكنت جائعًا وبردان فوجدت باب العمارة مغلقًا. ظللت أطرق الباب أكثر من ساعة والله. ولم يفتح البواب. لاحظ أن هذه لم تكن أول مرة برغم تملقى له وبرغم أننى لا أقصر معه فى البقشيش أبدًا. جاء عسكرى الداورية وتجمع الناس أمام العمارة وحدثت ضجة وأخيرًا تكرم سيادته وفتح الباب. قبل أن أنطق بكلمة قال الملعون إن العمارة يسكنها ناس محترمون وليسوا متشردين يأتون مع الفجر، وإننى أحسن لى أسكن فى شارع العوالم. قال أيضًا إنه لن يفتح الباب لمخلوق بعد ذلك فى

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

هذا الوقت. استشهدت بالعسكرى الذى كنت قد دخنت معه علبة سجائرى كاملة فى انتظار فتح الباب، فقال هو ـ الله ينكد عليه ـ إننى يجب أن أشكو فى القسم. وإنه سيشهد معى. فى الصبح ذهبت إلى القسم وقدمت شكوى وقلت إن طبيعة عملى أن أتأخر وإن البواب دأب على معاكستى، وإن الساكن يجب أن يكون حرًا فى العودة إلى بيته فى أى وقت.. إلخ واستشهدت بالعسكرى.

فى المساء رن جرس الباب وحين فتحت وجدت من تسمونها مطلقة صاحب العمارة واقفة على الباب وحدها، وقبل أن أفتح فمى بكلمة كانت قد دخلت وأغلقت الباب ـ قدتها لحجرة الجلوس وأنا مرتبك وأقول أهلاً وسهلاً. جلست وكانت تلبس بنطلون محزقًا من فوق وواسعًا عند قدميها، و (بلوزة) خفيفة كالقميص الرجالى أزرارها مفتوحة عند الرقبة والصدر وتكشف جزءًا محترمًا من ثدييها (أنت تعرف كم هى جميلة بجسمها الرياضى المرن وشعرها الأسود الطويل الذى تتركه يتهدل على وجهها دائمًا كممثلات الإغراء). دون مقدمات قالت أنا جئت لأنك مثقف وستفهمنى، أنت تعرف أن أهلى أرغمونى على الزواج من هذا الحيوان ولكنى نفدت بجلدى. جلست أمامها منتبهًا ومتصلبًا. فضحكت وقالت خد راحتك ولا تجلس هكذا كالتلميذ المؤدب. ضحكت أنا أيضًا ونظرت لها وكان شعرها يغطى وجهها فمدت أصابعها الطويلة البيضاء وفرقته ثم مشطته للخلف فى بطء. وتمنيت وقتها لو أمسكت يدها وغصت بيدى فى بحر شعرها أو لو قبلت هذا العنق الطويل النظيف. جميلة جدًا الله يخرب بيتها... تقول إنه مخروب بالفعل؟ أبدًا وصدقنى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عرفت أنها عادت له، فى السر، لأنه يخاف من زوجته الأولى. مسألة الطلاق هذه لعبة.

كانت تجلس أمامى ـ هكذا فى مكانك الآن ـ وقد باعدت بين ساقيها ووضعت يديها على ركبتيها وأخذت تتكلم ببساطة وبصوت ثابت. قالت لن أخفى عنك شيئًا.. أنا لا أطمع فى عمارة هذا الخنزير أو أى شىء منه ولكننى أريد أن أؤمن مستقبل ابنى. حقى. أليس كذلك؟.. معى كل الأوراق ولكن الخنزير وأولاده يشاكسوننى فى المحاكم، وإن كنت لا يأكلنى أحد ـ ولا الجن ـ قالت ذلك وهى تشير لصدرها العارى إشارة حازمة ولوحت بيدها بشدة فانفتح زرار آخر فى بلوزتها. كانت تحكى عن مؤامرات غامضة يعملونها لحرمانها من حقها وكنت أنا مثبتًا نظرى على صدرها المكشوف دون أن أنتبه. كنت أتأمل حمالتى صدرها المكورتين بنسيجهما الأبيض الشفاف وهما تحتضنان بصعوبة ثقلهما الأملس. أرخت عينيها حيث أنظر ثم نظرت إلىّ بعينين مندهشتين وهى تضحك وقالت: هل يعجبك؟.. تصورتها دعوة مفتوحة فقفزت من مقعدى هكذا ولكنها قالت بصوت حازم وهى تضم بلوزتها (دون أن تقفل الأزرار، لاحظ ذلك) ـ قالت ابق مكانك. عدت للجلوس متحيرًا فضحكت هى مرة ثانية وقالت إنها تعرف (شقاوتى) ولهذا تأخذ حذرها منى. سألتها عما تقصده فقالت إنها تعرف أن الممثلين أمثالى يلعبون كثيرًا مع الممثلات والبنات، ولا يجب أن أنكر ذلك فقد رأت فى التليفزيون ما فعلته فى تمثيلية الأمس مع زيزى. (كان دورى فى هذه التمثيلية لعلمك أن تستخدمنى البطلة زيزى لإثارة غيرة البطل فترقص معى أمامه فى حفل وتضع خدها على خدى وتمسك يدى بوله إلى آخر هذه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الحركات. وفى النهاية يأتى البطل فيشدنى من ظهرى ويعطينى لكمة قوية فأقع على الأرض) لم أقل لها إننى لم أتبادل أى حوار مع زيزى أثناء التصوير، وإن كلماتها الوحيدة لى أثناء (البروفة) كانت قولها لى بتأفف (حاسب، أنت تدوس على رجلى). كانت تتركنى بعد البروفة كأننى كرسى. هذا هو تصرف النجوم يا سيدى ربنا يوعدك.

لم أقل لها ذلك بالطبع وضحكت ضحكة غامضة فقالت وهى تضع يدها على بطنها: ألم أقل لك؟ ثم سألتنى هل تصلح للتمثيل فى التليفزيون. تطلعت إلى بنظرة ثابتة دون أن تحرك وجهها لأرى إن كانت تصلح وكانت البلوزة قد عادت تنفتح على سعتها دون نظام فقلت إنها بالتأكيد مكسب للتليفزيون. سألتنى هل أساعدها فى ذلك فقلت إننى تحت أمرها. ضحكت ضحكة قصيرة وقالت أهلى يقتلوننى لو مثلت، ثم عادت للاسترخاء وسألتنى هل سأسحب الشكوى أم لا؟... كانت تبدو شاردة، تنظر بعيدًا، ومدت يدها ففتحت زرارًا آخر عند بطنها وبدأت تتحسس لحمها العارى وتطبل عليه ببطء. قالت إننى لا يجب أن أضايق البواب لأنه متضايق بالفعل من العمارة ويهدد بتركها، وشعرت بالدوار من شدة رغبتى فيها وأنا جالس أمامها أتابع يدها المختفية تحت البلوزة، أشاهد ثديًا واحدًا، وأسمع طبلها على لحمها المشدود.. قلت دون أن أعى إنه لا توجد أزمة فى البوابين، فانتفضت فجأة وأخرجت يدها المختفية ولوحت بها نحوى وهى تقول إنها لا تريد أى بواب ولكنها تريد هذا البواب بالذات.. ألم أفهم؟.. إنه يحميها من مؤامرات هذا الخنزير ويطلعها على تحركاته وأوراقه أولا بأول، وهى مخطئة إذ ظنت أننى مثقف وأننى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

سأفهم، بل هى نادمة لأنها باحت لى بأسرارها وهى كانت معجبة بى وكانت تثق بى ولكنها الآن تعرف أن كل الرجال مثل بعضهم وأنه لا فائدة. قمت مفزوعًا وأمسكت يدها وقلت إننى سأفعل كل ما تريد وأنا آسف لما حدث وأنا تحت أمرها وأنا أقبل رأسها لتسامحنى. وقبلت رأسها، ثم قبلت خدها، ثم عنقها ولا أطيل عليك. فى هذه الليلة نمت معها.

(ملحوظة: يبدو أن هذا التصريح الأخير وكثيرًا من التفاصيل فى هذه الرواية من وحى خيال صديقى المهندس الكومبارس، وذلك لعدة تناقضات واضحة فيما سبق وفيما يلى من قصته. ويبدو أنها زارته بالفعل، وأنها طلبت منه سحب الشكوى بلباقة وبابتسامة مشجعة كعادتها، وأنه اشتهاها وهذا كل ما فى الأمر ـ ولكن ربما أيضًا يكون هذا كله قد حدث).

أقول لك الحق، إننى كنت مستعدًا لحظتها أن أسحب روحى من جسدى من أجلها لا أن أسحب الشكوى وحدها. ولكنها بعد أن انصرفت فكرت: كيف أسحب الشكوى؟ كيف أحتمل إهانة البواب لى؟.. والمهم ماذا أفعل وأنا مضطر بالفعل للعودة بعد منتصف الليل فى كثير من الأحيان؟.. وفكرت أنها لو جاءت مرة ثانية فسأعرض عليها المشكلة وأطلب منها التوسط عند البواب قبل سحب الشكوى. مضت ثلاثة أيام دون أن تأتى، وفى مساء اليوم الثالث حدث ما تعرفه.

التفاصيل أيضًا؟.. أى تفاصيل يا أخ؟.. كانوا يسدون باب شقتى حين عدت بالليل وقاموا بواجبهم. الحمد لله أنهم كسروا ساقى

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

وحدها. لو شوهوا وجهى لضاع مستقبلى كممثل ناشىء. لم يكن أى مخرج سيستدعينى إلا فى دور مساعد رئيس العصابة الذى تملأ الجروح وجهه، أليس كذلك؟.. هاها.. ها.

حين انتهى جارى المهندس ـ الكومبارس من قصته عرضت عليه اقتراحى. قلت له إن سبب كل ما حدث ويحدث فى العمارة أن كل ساكن يتصرف بمفرده ولهذا يسهل ضربه، ولكن لو اجتمعنا جميعًا وتقدمنا بشكوى موحدة للقسم وللمحافظة مثلاً...

صرخ المهندس فى وجهى قائلاً.. شكوى؟.. مرة ثانية؟.. ابعد عنى الله يرضى عليك.. ماذا تريد أن يحدث لى بعد ذلك؟.. ربما أنت لا تخاف لأن معك أربعة زملاء فى شقتك، ولكن أنا أسكن وحدى. ربما يقتلوننى فى شقتى المرة القادمة.

من سيمنعهم، من سيتعرف على القاتل؟.. سيكون أول وآخر كلام عنى فى الصحف (العثور على جثة موظف داخل شقته).. لا يا عم.. ابعد عنى أرجوك، دعنى فى حالى.

قلت له لأشجعه إننى حصلت بالفعل على توقيعات عدد من السكان وإننى أستشير محاميًا فى ذلك؛ فقال إننى لو جمعت توقيعات الشارع كله أو البلد بحاله فلن أحصل على توقيعه وقال فى النهاية قبل أن أتركه:

ابعد عنى يا عم. ملعون أبو الجدعنه. أريد أن آكل «عيش».

لكنه بعد منتصف الليل بكثير طرق بابى وقال إنه يريد أن يوقع على الشكوى، فجعلته يوقع.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

٣ ـ ما قاله صاحب العمارة حين طلبنى فى مكتبه، وبعض دروسه المستفادة من تاريخ حياته:

وبعدها فى شقة العزاب؟.. يا سيدى أنا عملتها خدمة والله. هذه هى الشقة الوحيدة التى أجرناها بالغرفة، وتوبة. ستقول إننى أكسب منها أكثر من الشقق الأخرى؟ أبدًا والله يا سيدى ليس هذا هو الغرض. أنا قلت: موظفون صغار ـ ولا تؤاخذنى ـ مرتبهم على قد حالهم. قلت خدمة. لا تؤاخذنى يا سيدى.. أنا كنت أسكن مع أم عيالى وعيالى فى غرفة فوق السطح وكان السقا يجىء لنا بالماء، والصفيحة بمليم. لم نكن نشكو ولم نكن نعرف الخزان ولا موتور الخزان ولا كل هذا الهم الثقيل. ومع ذلك أنا قصرت فى شىء؟.. أبدًا والله. انظر: هذا يا سيدى عقد موتور جديد للخزان.

ما الداعى لتعب القلب؟.. أنا سألت السكان جميعًا فقالوا إنهم لا يريدون شكاوى ولا تعب قلب ولكنك أحرجتهم. لماذا تحرجهم يا سيدى؟ خذها منى نصيحة. لا تدخل قسم البوليس شاكيًا أو مشكوًا. أنا فى سن والدك وأعرف الكثير. خذها منى نصيحة. افعل مثلى. أنا عندما يصبح الأمر ضروريًا جدًا جدًا أبعث المحامى أو البواب أو أى مخلوق لكنى لا أذهب برجلى. خذها منى نصيحة، أحكى لك حكاية. من عشرين سنة أو أكثر، كنت أشترى صفقات حديد كبيرة من مخازن الجيش الإنجليزى. كنا نكسب ذهبًا ولا الحاجة للعمارات يا سيدى. رأينا أيامًا ـ ما علينا. المهم، أيامها حصلت حكاية الفدائيين والشوشرة إياها التى تعرفها. طبعًا أنا لا دخل لى فى هذه الأمور. طول عمرى والحمد لله بعيد عن السياسة. حتى عندما كانوا أيام زمان يجمعون تبرعات للأحزاب كنت أقول

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ابعدوا عنى، والحمد لله نفعت بعد ذلك. لم يجدوا اسمى فى أى حزب. المهم كنا أيامها ندخل (كامبات) الإنجليز ونخرج منها لننهى أعمالنا. أيامها كان هناك مزاد كبير على صفقة لو وفقنى ربنا فيها لما احتجت لشىء بقية عمرى، وهُبْ هُبْ قبض علىّ الإنجليز. لماذا يا أولاد الحلال؟ قالوا إننى أساعد الفدائيين وإننى أنا الذى دللتهم على مخزن الذخيرة الذى نسفوه. أنا؟. يا ناس أبدًا والله.. ولا دخل لى بهذه الأمور. استلمونى بالضرب ويشاء ربك حين بدأوا الضرب أن يدخل (ماجور) كبير معه أوراق ويقول (ستوب). قال لى نحن متأسفون يا حاج. أخذنى فى مكتبه وشربنا الشاى مع بعض وطيب خاطرى، وقال إنهم عرفوا أن واحدًا ممن كانوا فى المزاد ضدى أراد أن يتخلص منى ليأخذ الصفقة لنفسه. لم يقولوا لى على اسمه ولكننى عرفته. أتدرى حكمة ربك؟.. أخذ الصفقة لنفسه فعلاً لأننى كنت محبوسًا فى الكامب ساعة المزاد، ولكن ربنا استلمه بالمرض ومات بعد سنة واحدة. ربنا يرحمه. أتدرى ماذا أظن؟..أظن أنه دفع رشوة لضابط إنجليزى حتى يقبض علىّ. ضباط الإنجليز كانوا أكبر مرتشين صدقنى، وهم الذين علموا أولاد العرب الرشوة. المهم راحت هذه وجاءت بعدها المصيبة الثقيلة، واسمع. أيامها الحكومة التى كانت تساعد الفدائيين غضب الملك عليها وطردها وجاءت حكومة جديدة ضد الفدائيين. بدأوا يقبضون على الفدائيين وبدون مناسبة قبضوا علىّ. لماذا يا أولاد الحلال؟ قالوا أنت كنت تساعد الفدائيين وحتى الإنجليز قبضوا عليك. يا ناس يهديكم يرضيكم افهموا الحكاية، لا فائدة أخذونى فى (البوكس) إلى القسم. عندما دخلت أول شىء رأيته عسكرى يضرب رجلاً

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بحزامه السميك والرجل يصرخ ويحاول أن يحمى وجهه. قلت يا فتاح يا عليم، ولكن ظهر من أحد المكاتب ضابط كبير وزعق فى العسكرى (يا ولد، الباشا الوزير لا يحب الضرب. عندنا تعليمات بعدم الضرب) ثم دخل مكتبه وترك العسكرى يضرب الرجل. مع ذلك قلت خير، ما دام الباشا الوزير لا يحب الضرب فعلى الأقل لو ضربنى أحد سأذكرهم بتعليمات الوزير وأخلص نفسى. حاولت أن أكلم أحـدًا فى القـسم وأن أشرح لهم الحقيقة لكنهم قالوا إنه لا شأن لهم بى وأن كل مهمتهم أن يوصلونى لشىء اسمه القسم الـمخصوص. لـم أكن سمعت فى حياتى بهذا القسم ويا ليتنى ما سمعت. أخذونا إلى هذا القسم ولفت نظرى أننا لم نر فيه جنديًا ولا ضابطًا. ممرات طويلة خالية كأنك فى عنبر مستشفى درجة أولى. لا تسمع صوتًا لأحد. أدخلونى فى زنزانة وتركـونى فيـها نـهارًا بطوله لـم يسأل عنى أحد. كدت أموت والله يا ابنى فى هذه الساعات. صليت لربنا أن ينجينى وصليت، ثم بدأت أنظر من ثقب الباب ولكننى لم أر أى شىء سوى الظلام. وضعت أذنى على الباب فلم أسمع صوتًا. مر الوقت طويلاً ولم يسأل عنى أحد، وخطر ببالى أنهم نسونى هنا وأنهم سيتركوننى حتى أموت فبدأت أصلى من جديد. فى هذه اللحظة سمعت فجأة صرخة لا يمكن أن أصفها لك. حين كنا صغارًا فى البلد كنا نسمع صرخة نرتجف منها، وكان أهلنا يقولون لنا إنها صرخة الذئب الجائع. كنا نبكى حين نسمعها وكان أهلنا يخيفوننا بها. من بعيد سمعت هذه الصرخة مرتين فجريت نحو الباب وألصقت أذنى. دقيقة، دقيقتان، لا شىء. بعد نصف ساعة وأنا واقف وأذنى على الباب قلت لنفسى ربما لا يكون هناك صوت. ربما

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

هى تهيؤات لأن الليل قد أتى ولأننى طول النهار بمفردى دون نوم أو طعام. وبعدت عن الباب فسمعتها مرة أخرى عالية جدًا كأنها فى الزنزانة نفسها فبدأت أنا أيضًا أصرخ، وبدأت أدور فى الزنزانة وأنادى يا ناس يا ناس ولكن لا أحد يرد علىّ، وبعد زمن طويل اكتشفت أن هذا الصوت لم يعد موجودًا وأننى أنا وحدى الذى أصرخ وأخبط الجدران، فجلست فى ركن من الزنزانة وبكيت. الحقيقة يا بنى إنهم عندما جاءوا بعد ذلك ليأخذونى لم أكن أستطيع أن أقوم على رجلى فجرونى جرًا إلى مكتب التحقيق.

سألنى الضابط عن الفدائيين فحكيت له الحكاية كما حكيتها لك بالضبط، ولكنه لم يكن ينظر فى وجهى أبدًا بل يدخن سيجارة وينظر للحائط وحين انتهيت قال لى بهدوء:

ـ أنا أعرف أمثالك من أولاد الكلب، لا ينفع معهم الذوق.

أخذت أقسم له أن هذه هى الحقيقة لكنه قال للحراس خذوه ليتفرج ثم عودوا به. ماذا أقول لك؟.. من يومها وأنا مريض بالسكر. كانوا يحملوننى تقريبًا ونحن ننزل السلم وأنا لا أكف عن القسم وأحكى الحقيقة للحراس فضربنى أحدهم مرتين على وجهى ومرة على رأسى، وقال إننى لو فتحت فمى بعد ذلك فلن يكفيه أن يشرب من دمى. كنا نقف أمام باب مغلق فقال أحدهم إن الأضمن أن يكمموا فمى وبالفعل حدث ذلك رغم أننى أقسمت أنى سأسكت. بعد ذلك فتحوا الباب وأدخلونى. لا أذكر كل ما رأيت.. انتظر.. نعم.. أول شىء أذكره.. أول شىء رأيته ثلاثة شبان معلقين من أرجلهم بجوار بعضهم مثل ذبيحة الجزار.. كانت رءوسهم قرب الأرض زرقاء

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نافرة العروق ورقابهم منتفخة هكذا.. كانت أجسادهم تتطوح قليلاً وتخرج من حلوقهم حشرجات كخوار الذبيحة قبل موتها.. تعرف ذلك؟.. حين تهمد الذبيحة تمامًا.. هكذا. لا أذكر إن كانت عيونهم مفتوحة أم لا.. جرنى الحراس إلى زنزانة أخرى أول ما رأيت فيها كلبًا بهذا الطول والله يا ابنى ـ فى حجم البغل الصغير ـ ثم رأيت شابًا عاريًا تمامًا مصلوبًا على خشبتين متقاطعتين وساقاه مفتوحتان وكان رجل يمسك الكلب بسلسلة طويلة وينادیه باسم لا أذكره ثم يرخى السلسلة فيندفع الكلب نحو الشاب وينهش فخذه المغمور بالدم فيحرك الشاب رأسه ويهز صليبه بجسمه كله وهو يزوم ويتنهد. لم يكن يصرخ. لكنه كان يزوم. وكان صاحب الكلب يقول لكلبه كفى.. كفى يا ميزو.. تذكرت ـ كان اسم الكلب ميزو.. يقول له كفى والكلب مستمر فى نهشه حتى يجذب صاحبه السلسلة بشدة.. انتبهت إلى رجل آخر يقف والعرق يغمر وجهه ـ تقدم من الشاب بعد أن ابتعد عنه الكلب ورفع رأسه المحنى عن صدره وقال له تكلم.. تكلم يا مجرم وإلا جعلناه يلتهم عضوك. لن تصبح رجلاً أبدًا. لكنه لم يتكلم وأنا واقف. ربما كان مغمى عليه. كان يزوم فقط. ترك الرجل العرقان رأس الشاب فسقط على صدره والتفت إلىّ. قال وهو يضحك ضحكة قصيرة (أهلاً.. أنت الذى ستشرفنا غدًا؟ دع ميزو يتعرف عليه..) أطلق الآخر السلسلة فاندفع نحوى الكلب وأخذ يتشممنى بأنفه الملوث بالدم وينهش ثيابى وأنا أتشبث بالحراس الذين معى، أحاول أن أختفى وراءهم والكلب يجذب ثوبى وهم يضحكون وأنا أبكى والكمامة على فمى لا أستطيع أن أصرخ. وأخيرًا جذب صاحبه السلسلة وقال (هذا هو التعارف يا ميزو. غدًا تصبحان صديقين). كان يخاطب الكلب وهو يخبط على رقبته.

تنسيق: علامة تعجب
www.ibtesama.com

ماذا رأيت أيضًا يا سيدى؟.. لا داعى للحكايات.. ولكن لا، بل انتظر.. لا بد أن أحكى لك هذه.. كانت آخر ما شاهدت. رأيت الكثير، لكن هذه كانت آخر ما شاهدت.. فى غرفة واسعة كان فى وسطها شىء كمغطس الحمام البلدى ممتلئ بالماء وتطفو فوقه ألواح الثلج.. كان يقف رجل يداه مقيدتان خلف ظهره بحبل طويل، كان يمسكه اثنان من ذراعيه ورجل آخر يجلس على ركبتيه ويدلك رجليه بشىء كالشحم.. بعد ذلك صب على رجليه شيئًا من زجاجة كانت بجواره ومد يده لأحد الاثنين الواقفين فناوله علبة كبريت. زحف على ركبتيه بعيدًا عن الرجل المقيد حتى صار على بعد ذراع منه، ثم أشعل عود كبريت ومد يده، وبسرعة من رجل إلى أخرى أشعل النار. جرى الاثنان الآخران بعيدًا بسرعة وبيد كل منهما سوط راحا يضربان الرجل المشتعل الساقين الذى بدأ يصرخ.. كان يقول يا كلاب االاب. آه ياكلاب االاب..راحا يضربانه على ظهره والرجل يرفع ساقًا بعد الأخرى عن الأرض بسرعة وهو يتجه نحوهما لكنهما يحيطان به عن بعد ويضربانه على ظهره ليتجه إلى الأمام.. إلى وسط الزنزانة.. وأخيرًا فهمت ما كانوا يحاولون عمله.. أخيرًا نجحوا فى أن يجعلوا الرجل يقفز إلى المغطس المثلج.. انكفأ على وجهه فيه.. وسمعت صوته وهو يشهق.. وسمعت صوت الماء على النار «تشش.. تشش».. وسمعت شهقات الرجل تكركر فى الماء ورأيت واحدًا يميل بسرعة ويجذبه من كتفه ثم غبت أنا عن الدنيا.

حين أفقت فى الليل كنت فى زنزانتى وكنت أشعر بعطش شديد وبجفاف فى فمى. هذا هو أول داء السكر كما تعرف. صرخت أطلب

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الماء ولم يرد أحد. حين قمت ارتطم رأسى بالحائط وهذه من رحمة ربنا. فقد أغمى علىّ مرة ثانيـة ولم أفـق إلا فى الصباح حين دخل الحراس علىّ فى زنزانتى. لم أكن أستطيع أن أقوم. كانت شفتاى وارمتين ولسانى كقطعة الخشب فى فمى. جرنى الحراس من تحت إبطى حتى غرفة التحقيق دون كلمة. حين دخلت ووجدت الضابط علـى مكتـبه تـملصت من يدى الحارسين.. فجأة لا أدرى من أين جاءتنى هذه القوة.. خلصت ذراعى منهما بالفعل ثم ارتميت على بطنى أمام الضابط وأمسكت بحذائه وأخذت أقبله.. قام مفزوعًا وحاول أن ينزع رجله من بين يدى، لكن أبدًا.. كانت روحى فى هذا الحذاء. تندهش لهذا؟ ربنا يا ابنى لا يريك.. انظـر.. مضـت عشـرون سنة على هذا، وانظر هذا العرق فى وجهى.. تحسس يدى.. ربنا يسامحك.. لماذا جعلتنى أحكى هذا كله؟ والله أنا لا أحكى هذا أبدًا.. لماذا؟ حين نـجح الـحراس فى أن يحمـلونـى ويفكـوا يـدى من حذائه قال الضابط لماذا فعلت هذا يا حاج؟.. لم يكن هنـاك داع لهـذا. أنـا طلبتـك لأقـول لـك صـدر أمر بالإفراج عنك. أمر بالإفراج؟ كم يومًا بقيت؟ .. يومًا واحدًا.. ليلة واحدة.. ساعات.. ولكن تعرف يا ابنى؟.. عمرى كوم وهذه الساعات كوم.

حين خرجت عرفت المسألة.. زوجتى أم العيال دفعت مبلغًا كبيرًا جدًا لرجل مهم فى الوزارة وبالتليفون أمرهم بالإفراج عنى.. دفعت كل ما كان معنا. وما بقى صرفته على العلاج والله.. الحمد لله على كل حال. والآن تحدثنى عن العمارة؟.. أى عمارة يا سيدى؟ تغور العمارات والمال وتعود لى صحتى.. أنا على العموم لا شىء لى

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

فى هذه العمارة. أخذها الأولاد. هنيئًا لهم يا سيدى. أنا لا أريد شيئًا من الدنيا. ماذا كنا نقول من أصله؟. انظر كيف يجر الكلام بعضه؟ ربنا يسامحك.. آه.. أنا لا أحب أن أدخل أقسام البوليس. طبعًا هذه الحكاية كانت من زمان والدنيا الآن حرية والحمد لله، ولكن ماذا أفعل فى طبعى؟.. لا أحب أن أدخل الأقسام. المحامى يقول عندى عقدة نفسية. يلهف نصف أموالى ربنا يجازيه ويقول عقدة نفسية. ربنا يسامحه. ما علينا. المهم من يوم أن نجانى ربنا من هذه المصيبة وأنا لا أفعل شيئًا إلا بمشورة المحامى. لا أبيع إلا وهو معى. لا أشترى إلا ورجلى على رجله.. لا أرفع إصبعى إلا بإذنه. هو الذى يشير على بكل خطوة. والحمد لله لم يحدث شىء إلا أنه ينهبنى. ينهب يا سيدى ولكننا لم نعرف طريق الأقسام. والآن تريد أنت أن تجرنى للقسم..؟ لا.. لن تجرنى فالعمارة ليست باسمى ولا دخل لى بها. العمارة باسم الأولاد. تصرف أنت معهم أو هم يتصرفون معك، أنتم أحرار. أنا لا دخل لى بشىء أبدًا.. ومع كل يا ابنى أنا رأيى أن تقصر الشر. هم أولادى وأنا أعرفهم. لا يراعون أباهم نفسه. ما قولك، أنا أستطيع أن أريحك. عندنا عمارة أخرى.. ليست عمارتى والله ولكننى أريد أن أخدمك. هناك شقة بمنافعها من غرفة واحدة وإيجارها معقول. ما قولك؟ أستطيع أن أساعدك لتأخذها وتبعد عن هذه العمارة بمشاكلها وكل من فيها. ما قولك؟ لا داعى لأن تتعب قلبك بالشكاوى والتوقيعات وكل هذا الهم الثقيل. دخلنا أصحاب ونخرج أصحاب. ما قولك؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

٤ـ المهندس ـ الممثل يقوم بزيارة مفاجئة ويدلى بموعظة ختامية:

هذا يوم نكد من أوله. مشاجرة مع الـمخرج ومقابلة مع صاحب البيت. المخرج مقدور عليه ولكن صاحـب البيـت؟.. قل لى ماذا فعلـت لـه؟.. وجدته غاضبًا جـدًا. لم أره فى حياتى بهذا الشكـل. هل صحيح أنك طلبته هو وأولاده فى القسم ليوقعوا تعهدًا بعدم التعرض لك؟.. عجيب!.. وبـماذا سينفعـك التعهد؟ أحسن لك تحصن شقتك بمدفع. أحسن لك تبيت خارج البيت أو أن تعزل من العمارة. أحسن لك أن تمزق هذه الشكوى وفى داهية كل الأسانسيرات والـمياه فى العالـم. هات هذه الشكوى من فضلك. أريد أن أشطـب توقيـعى. لا تعمل بطلاً على حسابى. ما شأنى أنا بكل هذا الهم؟ لماذا لم أتعلـم من كل ما حدث؟ لماذا تعذبنى؟.. حين تركتنى فى المرة السابقة لم أستطع أن أنام طول الليل وظل ضميرى يؤنبنى. أقول لنفسى هل أنا جبان. يجب أن أوقع مثل باقـى السكـان. لم أستطـع النوم حتى جئت إليك ووقعت. لماذا؟

ـ ملعون أبو الضمير. ملعون أبو الكرامة. هى التى ضيعتنى اليوم أيضًا. قلت للمخرج إننى لابد أن أتكلم. المشهد يحتم على أن أتكلم. لكنه رفض. صممت فسحب الدور وهدد بأنه سيرفع أمرى لإدارة التليفزيون لوقفى عن العمل. يجب أن أوسط أحدًا للمخرج وللمدير أيضًا. ربما يوقفوننى ستة أشهر فى هذه الحركة. جدعنة وخراب بيوت. سآكل كرامة ستة أشهر إن شاء الله. لابد من واسطة كبيرة. ومع ذلك فأنا لم أخطئ والله. اسمع ما حدث. اسمع واحكم. فى البرامج التعليمية يلبسوننا ملابس تاريخية ويتحدث الوزير مع الملك. أنا الملك أجلس على عرش كبير وفوق رأسى عمامة ثقيلة

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

كالداهية (المفروض تاج طبعا ولكنهم جهلة) يتحدث الوزير وأنا أبتسم وأهز رأسى. عملنا مليون بروفة والوزير يتحدث وأنا أهز رأسى. فى الدنيا ملك بهذا الشكل؟.. حفظت كل كلمات الوزير والله.. حفظتها أحسن منه. استمع إليها أرجوك. أنت الملك ـ وأنا الوزير أقف أمامك هكذا وأقول.. استمع من فضلك...

ـ زعموا أن غديرا كان فيه ثلاث سمكات.. كيسة وأكيس منها وعاجزة.. وكان ذلك الغدير لا يكاد يقربه أحد ويقربه نهر جار، فاتفق أن اجتاز بهذا النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك. فسمعت السمكات قولهما. فأما أكيسهن لما سمعت وارتابت بهما، وتخوفت منهما، خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير. وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان فلما رأتهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قالت فرطت وهذه عاقبة التفريط، فكيف الحيلة على هذه الحال؟.. غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأى، ولا ييأس على حال، ولا يدع الرأى والجهد. ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها فأخذها الصيادان فوضعاها بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت. وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت.

هل سمعت؟.. بذمتك كل هذا كلام يقوله ممثل واحد، وبهذه اللغة؟.. أى إخراج هذا؟! إخراج نيلة. اسمع ما اقترحته على المخرج. قلت له أتدخل أنا لكسر الملل وتشويق المتفرج (ودون خروج على النص لاحظ ذلك) أقول للوزير مثلا: فلما سمعت أكيسهن ما قالا وارتابت بهما وتخوفت منهما ماذا فعلت؟.. ثم أقاطعه مرة ثانية

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وأقول: والكيسة ماذا فعلت لما رأتهما وعرفت ما يريدان؟ وفى المرة الثالثة أقول كلمة واحدة: والعاجزة؟.. هذا كل اقتراحى. هل هو كفر؟. نترك مـمثلا واحدا يقرف المتفرجين كل هذا الوقت؟.. كلامى أنا يعنى هو الذى سيهد التليفزيون؟ يا ناس، أنا حفظت الدور كله، لماذا لا أتكلم؟

أعطنى الورقة ـ الله يرضى عليك ـ أريد أن أشطب اسمى.

(١٩٧٢)

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

صدر للكاتب

١ـ الخطوبة	مجموعة قصصية	١٩٧٢
٢ـ بالأمس حلمت بك	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٣ـ أنا الملك جئت	مجموعة قصصية	١٩٨٥
٤ـ ذهبت إلى شلال	مجموعة قصصية	١٩٩٨
٥ـ لم أعرف أن الطواويس تطير	مجموعة قصصية	٢٠٠٩
٦ ـ شرق النخيل	رواية	١٩٨٥
٧ـ قالت ضحى	رواية	١٩٨٥
٨ـ خالتى صفية والدير	رواية	١٩٩١
٩ـ الحب فى المنفى	رواية	١٩٩٥
١٠ـ نقطة النور	رواية	٢٠٠١
١١ـ واحة الغروب	رواية	٢٠٠٦
١٢ـ ١٠ مسرحيات مصرية	نقد	١٩٨٥
١٣ـ فى مديح الرواية	نقد	٢٠٠٤
١٤ـ أبناء رفاعة: الثقافة والحرية	فكر	١٩٩٠
١٥ـ فاصل غريب ..... (ترجمة لمسرحية يوجين أونيل)	ترجمة	١٩٧٠
١٦ـ ساحر الصحراء ..... (ترجمة رواية الخيميائى)	ترجمة	١٩٩٦

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

الخُطوبَة

«مشغول بهاء طاهر بروح الإنسان، دومًا يسعى إلى استرجاعها، إنقاذها من الهلاك، من الضياع، من القبح، من سطوة الكره، من وحل الأشياء، وغبار الزمان والمكان، مشغول انشغال القديسين والفنانين الكبار، يرى الماضي يسرع إلى النسيان، والحاضر يجري متحولًا إلى ماضٍ، فيستدعي كل عزمه، كل إحساسه المرهف، كل ذاكرته الحافظة الفائقة القدرة على التخزين، ليقيم من هذا كله سدًّا عاليًا يحول بين الزمن وبين أن يعدو على قيم يريد لها بهاء طاهر أن تظل باقية، لأنها أجمل ما تحمل روح الإنسان».

علي الراعي

«في «الخطوبة» نرى عالمًا عاريًا من الزوائد والإضافات، شديد الكثافة والاقتصاد، يبدو وكأنه بالغ الحياد أو واقع على حدود اللامبالاة، ولكنه مترع تحت هذا الرداء الحيادي الخادع بالعواطف والأشواق والصبوات الإنسانية البسيطة والمستعصية معًا».

صبري حافظ

• • •

بهاء طاهر من مواليد ١٩٣٥. أحد أهم الروائيين العرب. نال جائزة مبارك للآداب عام ٢٠٠٩، وقبلها جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨، كما حصلت روايته «واحة الغروب» على جائزة البوكر العربية في دورتها الأولى عام ٢٠٠٨، صدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: «خالتي صفية والدير» عام ١٩٩١ و«الحب في المنفى» عام ١٩٩٥. وخمس مجموعات قصصية بالإضافة إلى دراسات أدبية ونقدية وترجمات.

www.ibtesama.com

الغلاف : وليد طاهر

6 221102 025874

مجلة الابتسامة

دار الشروق
www.shorouk.com